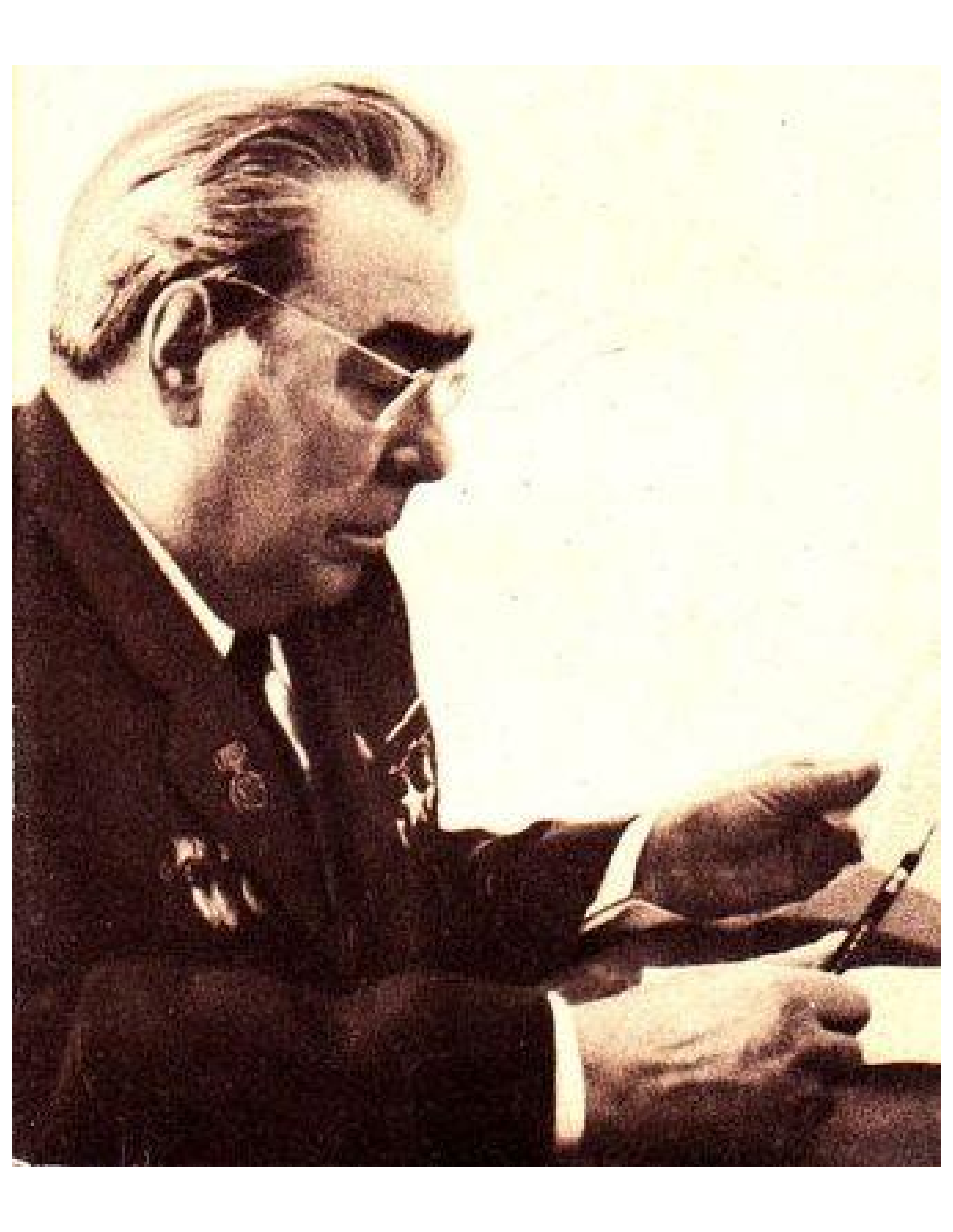


كنا نعيش وفقا لصفير المصنع

- ١ -

كنت محظوظا اذ ولدت وترعرعت وتربيت على التقاليد العمالية فى اسرة كادحـــــة فى نجع عمالى كبير . فصفير المصنع من اقوى ما انطبع فى ذاكرتى من ذكريات الطفولة المبكرة : ما كادت تلوح تباشير الصباح حتى كان ابى قد ارتدى بزة العمل وامـــى تودعه عند العتبة ويهدر الصفير الجهير الذى كان يخيل لى انه مسموع فى كل اطراف الارض .

لم يكن الراديـو موجودا آنذاك ولم يكن لدى العمال ساعة فكان المصنـــــع نفسه يدعوهم الى العمل . كان الصفير التنبيهـــــى الاول يطلق فى الخامسة والنصف صباحا ، ثم فى السادسة يطلق صفير بدء النوبة ، وبعد ذلك فى الخامسة والنصف مساءا يطلق صفير تنبيهى يعقبه فى السادســـــة صفير النوبة الثانية . آنذاك كان فى كامينسكويه ،

نجعنا الذى تحول فيما بعد الى مدينة دنيبرودزيرجينسك العمالية ، خمسة وعشرون الف نسمة . وكان حساب الزمن كله وطراز المعيشة كله والعادات والطباع وجهد الناس نفسه ، باختصار كانت الحياة كلها تسير وفق صفير المصنع .

كنت ارتدى ملابسى على عجل واعدو حافيا بلا اكل على اثر والدى . وحين يمسك بيدى القى نظرات فخورة حوالى ولسان حالى يقول : انظروا كيف كبرت وها انا ذاهب الى المصنع ، فى حين انى كنت عندها فى حوالى الخامسة من العمر . وكان العمال الآخرون يخرجون من البيوت المجاورة من الازقة والشوارع الضيقة فيزداد عددنا . والجميع تقريبا يلبسون صديريات رثة وسراويل من قماش خشن يسمى «الصينى» . واتذكر اننى كنت معجبا جدا بالسير جنبا الى جنب مع الآخرين .

كان حشد من زهاء الف شخص يتقاطر نازلا نحو نهر الدنيبر ومنحدر بازارنى وهنا كان ابى يتركنى وسرعان ما تضيع سدارته وسط بحر من السدارات والعمرات وقبعات اللباد . وكنت اشاهد من بعيد كيف يمتص ثقب البوابة الاسود جمهور الناس . وانا نفسى ، ربما فى سن السابعة ، اجتزت لاول مرة هذه البوابة حاملا الغذاء لابى .

كان المصنع يعمل بنوبتين كل واحدة لاثنتى

عشرة ساعة وهناك ايام (عند تغيير ترتيب النوبات) كان العمال فيها يبقون فى المصنع لثمانى عشرة ساعة . لم يكن هناك مطعم ولا فترة طعام . كانوا يقضمون على عجل ما يجلبونه معهم من البيت . وكان البعض تجلب لهم زوجاتهم او بناتهم او اخواتهم الطعام فى صرة . وعرفت فيما بعد ان ابى وامى لم يلتقيا فى نزهة او فى حديقة البلدية او فى ضيافة او فى ناد ، وهو ، بالمناسبة ، ما كان يمكن ان يكون له وجود فى وقتهما ، وانما كانا التقيا هنا فى ورشة دلفنة الحديد بمصنع دنيبروفسكى .

كان ابى مساعد عامل دلفنة . وكان العامل القديم دينيس مازالوف لحاما فى افران التسخين . واتذكره جيدا : مكتنز البدن قليل الكلام . وهو واحد من الصناع الروس الاصليين من ابناء يناكييفو . وسبق ان عمل فى نيكوبول وانتقل الى مصنعنا باسرته الكبيرة . وكانت كثيرا ما تجلب له الطعام ابنته الكبرى نتاليا . فهنا ازاء افران التسخين عند الماكنة «٢٨٠» تعارف والداى ثم اقترنا بعد عام . كان ابى حينئذ فى الثامنة والعشرين وامى نتاليا فى العشرين .

ماذا يمكن ان اقول ايضا عن اصلى ؟ معروف ان الاسر العمالية ما كانت تسجل شجرة النسب . اعرف ان والدى ايليا ياكوفليفيتش بريجنيف انتسب الى المصنع عام ١٩٠٠ . وكان قد قدم الى

هنا من قرية بريجنيفو بقضاء ستريليتسكى بمحافظة كورسك . واظن ان اسم القرية مثل لقبنا يعود الى موقعها على الشاطئ (بريج بالروسية . – **المترجم**) وربما من كلمة «بيريج» التى تعنى «الحرص» ، وهو ما يتفق تماما مع حرص الفلاحين على الارض وهى المطعمة . لقد كانوا يعتزون بالارض ويحافظون عليها ويصونونها ويروونها بالعرق والدم طوال القرون . ولكن الفقر ظل طوال قرون ايضا ملازما للناس والا لما اضطر ابى على الرحيل عن مسقط رأسه للارتزاق .

وجدير بالذكر ان العم اركادى عاش معنا فيما بعد فى شقة واحدة . وكان لقبه بريجنيف ايضا ولكنه لم يكن اخا لوالدى وانما هما من بقعة واحدة . وقد قدم كالآخرين وآواه ابى . وصار عامل تعدين وبعد ذلك اقترن بشقيقة امى الصغرى واصبح من اقاربنا وعما لى . ويبدو ان اصحاب اللقب الواحد فى قريتنا كما كان المألوف فى القرى الروسية لم يكونوا قلة .

اذن فانا من جهة القومية روسى ، ومن جهة المنشأ بروليتارى اصيل وعامل تعدين بالسلالة . هذا كل ما اعرفه عن نسبى .

ربما من المناسب هنا ان نتذكر نسب الطبقة العاملة فى روسيا . ان نموها العاصف بدأ ، تحديدا ، على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين ،

الامر الذى سبب تنقل جماهير ضخمة من الشعب وتبدلات حادة فى حياة الملايين من الناس . وقد يبدو مصير كل فرد من هؤلاء صدفة ، ولكن مصيرهم جميعا كان مرهونا بحركة التاريخ ، وقدرته الثورة الصناعية التى شهدتها البلاد . فليست الصدفة بتاتا هى التى جاءت بوالدىّ الى منطقة يكاترينوسلاف (مقاطعة دنيبروبتروفسك الحالية) واجبرتهما على ان يحطا الرحال فى جنوب روسيا بالذات .

ففى هذه البقعة يتجاور بصورة موفقة فحم الدونباس وفلزات كريفوروجيه وتربط بين المنطقتين سكة حديد . واتاح طريق الدنيبر المائى ارسال المعدن الجاهز الى صانعى الماكنات فى بيجيتسا وبريانسك . وهذه الامور كلها مجتمعة وكذلك الامكانات غير المحدودة لاستخدام الايدى العاملة الرخيصة كانت تجتذب الى هنا اصحاب الاعمال الروس والرأسماليين الاجانب . فمصنع دنيبروفسكى مثلا وحد الرأسمال البلجيكى والبولونى والفرنسى . فنما المصنع نموا فائق السرعة : ازداد عدد سكان كامينسكويه من الفى نسمة حتى ١٨٠٠٠ فى الفترة من ١٨٨٧ حتى ١٨٩٦ .

هذان الرقمان واردان فى كتاب لينين «تطور الرأسمالية فى روسيا» . قال لينين : «ان ما كان يتكون على مدى قرون فيما مضى يتم الآن فى غضون سنوات عشر» . وبعد ذلك بوقت طويل حين صرت

طالبا قرأت هذا البحث الكلاسيكى فانتبهت الى مدى الدقة والعمق اللذين درس بهما لينين نمو التعدين فى جنوب روسيا . واتذكر انه كان هاما لى جدا ان قائد البروليتاريا العالمية العظيم عندما حلل تطور البلاد الاجتماعى الاقتصادى وشمل بنظرته روسيا برمتها رأى طرفنا ايضا ومن ذلك قرية كامينسكويه السابقة ودرس ماضيها وعرف حاضرها واستشف مستقبلها .

كانت محافظات سانت-بطرسبورغ وموسكو وكييف وبيرم وفلاديمير تأتى فى المقدمة من حيث التجهيز التكنيكى خلال الثمانينات من القرن الماضى ، ولكن فى التسعينات كانت محافظة يكاترينوسلاف تأتى بعد محافظة العاصمة مزيحة المراكز الصناعية القديمة . ففى الاورال ازداد عدد «القوى البخارية» خلال عشر سنوات مرتين ونصف ، اما فى الجنوب فقد قاربت هذه الزيادة خلال الوقت نفسه ستة امثاله . اضف الى ذلك ان المصانع الجنوبية كانت تتميز عن الاورالية بانها لم تعد تستخدم الفحم الخشبى وانما الحجرى ، وان حديد الزهر لم يعد يصهر بالنفخ البارد ونبذت فى انتاج الحديد اسلوب الطرق القديم .

لقد خرج لينين باستنتاجه القائل : «بقدر ما نجد الاورال هرما ، والاوضاع السائدة فى الاورال «قدستها القرون» ، نرى الجنوب غضا ويمر بمرحلة

التكوّن . والصناعة الرأسمالية البحتة التى ترعرعت هنا خلال العقود الاخيرة لا تعرف لا التقليد ولا الفئوية ولا القومية ولا الانغلاقية لسكان معينين» .

وهذا كله ، اكرر ، قرأته واستوعبته فيما بعد ، فى السنوات الطلابية . ولكن ما كتب عنه لينين سبق ان شاهدته وحفظته الذاكرة من سنوات الطفولة . كلام بألسن كثيرة ، وحشود من الفلاحين الوجلين المنهمرين علينا من محافظات شتى واكواخ صنعت كيفما اتفق وبناء افران مارتان والافران العالية ومكائن الدلفنة القوية – اتذكر هذا كله حتى ادق تفاصيله . كان المصنع الذى هو الاكبر فى الجنوب يومها يشمخ فوق النجع . كان كل ما حولنا يمتد اليه . وكنت مثل سائر ابناء العمال ادرى اننى سأتى على اثر والدى الى الورشة ، الى النار الحية . وما كانوا فى النجع يفكرون فى قسمة اخرى . كان المصنع يصفر مدويا مذكرا بنفسه ، وكنت ادرى ان هذا مصيرى .

كان المصنع باعتبارات ذلك الوقت يعد حسن التجهيز ، ولكن لم يكن فى الورشة بطبيعة الحال لا ناقلات القطع ولا المناضد الرافعة . العربات تفرغ بالرفوش ، والفحم يرمى الى المواقد بالرفوش ايضا . وكان حصان مطأطأ الرأس يجر القطع السوداء الى افران التسخين حيث يشتغل جدى دينيس . ومن هنا كانت القطع المحمية حتى البياض

ووزن كل منها نصف طن تجر بالكلاليب الى ماكنة الدلفنة ، ثم تنتقل باليد من قالب الى آخر ويقبض بالملاقط على الشريط الرقيق الذى لا يزال حارا ولكنه قد بسط ويجرونه من الفوهة الاخيرة ركضا الى البلاطة حيث يبرد المعدن .

ومرة بعد مرة «يتسمر» فى مكانه عامل طويل القامة مرصوص المنكبين يرتدى الصديرى ويحتذى نعالا مفتولا من الحبال . لقد رأيته جيدا : كله فى تحفز والكماشة متأهبة فى اية لحظة . فما ان تندفع من الفوهة الافعى الشريرة المتوهجة الفحاحة حتى يروضها ويقذفها بحركة عريضة الى اسطوانات اخرى . كان الرجل يبدو لى فى تلك اللحظة ماردا اسطوريا عملاقا . وهذا الرجل هو ابى .

وحين كان ابى يرانى ينادى العم اركادى او جارنا لوكا او واحدا من العمال ليحل محله ، فيغسل يديه ووجهه ويخرج الى الباحة ويضيق جفونه من الشمس ويجلس على العشب الذاوى ليتناول غداءه . كان يأكل صامتا . وكان يمسح احيانا رأسى بيده المخشوشنة . ويسأل عن أمور البيت وعن أمى . وكان الغداء ينتهى دائما بعبارة ابى المعتادة : «رح العب» . وكنت وانا لا ادرى اى جهد جهنمى ينتظره من جديد اعدو مع اصحابى نحو المداخن النفاثة فى طرف المصنع .

نمت وراء البنايات اشجار الصفصاف . وكنا

نشق طريقنا عبر هذه الخمائل الى الدنيبر . وكان الشاطئ فى هذا المكان عاليا وشديد الانحدار . كنا ننظر من الاعلى فكان يتكشف امامنا افق لا يحده النظر . وفى الاسفل كان الماء يزرق وتلوح جزيرة خضراء مدثرة بالادغال . وكان كل ما وراء ذلك مغطى بالزرقة : الماء والمروج وقريتا نيكولايفكا وكوريلوفكا وراء النهر – كان هذا بالنسبة لنا آخر الدنيا .

للطفولة سماتها . كان كل ما هناك عند الدنيبر سعادة لنا . كنا نجرى نازلين على منحدر ونسبح ونعوم الى الجزيرة ولكن هذا ليس فى الربيع . وعند الفيضان كان الماء يغمر اشجار الجزيرة ولا يكاد الشاطئ المقابل يرى . والآن اتذكر ما كتبه غوغول : «نادر من الطيور ما يصل الى وسط الدنيبر» . اظن ان صورة النهر هذه لديه من ذاكرة الطفولة .

وذكريات الطفولة مسرة دوما ، ولكنى اريد تحاشى الخطأ الذى لا يندر ان يقع فيه بعض اصحاب المذكرات : فالماضى يرتسم لهم بلون وردى وذلك على الاقل لانهم هم انفسهم كانوا آنذاك فى ريعان الصبا .

-٢-

كانت اسرتنا تقطن فى حى عمالى يسمى «الجالية السفلى» فى زقاق اكسيونوفسكى . وهنا ولدت يوم

١٩ كانون اول عام ١٩٠٦ . وهنا فى الغرفة نفسها رأى النور شقيقى ياكوف وشقيقتى فيرا .

كانت العناية بحاجات السكان الروحية محصورة فى كنيستين ارثوذكسيتين ومعبد كاثوليكى وآخر لوثرى وبيعة يهودية فى نجع كامينسكويه . اما غير ذلك من «منابع الثقافة» فقد كان يبدأ ازاء بوابة المصنع بالذات : خمارة ستريغولين وخمارة سميرنوف وعدد لا يحصى من الخمارات وحوانيت الخمور الحكومية .

اما فى «الجالية العليا» جنوب غربى النجع فهنالك عالم مغاير تماما : كانت هناك مبانى اداريى المصنع الفسيحة العامرة ذات الطابقين . وحتى الدخان المنبعث من المداخن العديدة العالية والواطئة ، الدائرية والمثمنة – كان يتحول عنها جانبا ويكاد دوما يمتد الى حى العمال . وفيما بعد ادركت انهم حسبوا هناك «وردة الرياح» لحوض الدنيبر . ولهذا السبب لف الدخان سماء طفولتى وكانت طبقة من السناج تغطى بيوتنا .

كان دخول بقعة «الجالية العليا» محرما على العمال تحريما صارما . نور الكهرباء يشع هناك مساء ، وعربات الركوب ذات العجلات المطاطية المنفوخة تتدحرج الى هناك . فتنزل منها السيدات والسادة بمهابة . كان هؤلاء كصنف آخر من الناس – شباع ناعمون متعالون . المهندس ذو القبعة الرسمية

والمعطف المخملى الياقة لا يمد يده للعامل ابدا ، اما هذا فلزاما عليه ان يخلع قبعته عندما يقبل على مهندس او اسطى . ونحن ابناء العمال ما كان لنا الا ان ننظر من وراء سياج حديقة البلدية المشبك الى «الجمهور الانيق» المتسكع على انغام جوقة الآلات النحاسية .

على المرء ان يرى الماضى فى ضوء الحقيقة لكى يفهم الحاضر ويقيّمه جيدا .

جاء فى احد مناشير البلاشفة التى كانت توزع فى نجعنا : «هيهات ان تصادف ظروفا لا تطاق كالتى فى مصنع كامينسكويه . فاين رأيت عملا استمر سنة بأكملها من دون اية اعياد واين يفرض العمل اثنتى عشرة ساعة متواصلة واحيانا ثمانى عشرة ساعة بدون فترة توقف لتناول الفطور والغداء ؟ واين سمعت بان استقطع من اجور العمال لترميم المبانى ولتصليح الماكنات والادوات ؟ يبدو ان مصاصى دمائنا لا يقنعون بتلك الارباح التى يبتزونها من جهدنا ، فهم يتصيدون كل فرصة ويغرموننا . . . اننا نعمل دهرا ونعيش فى الاوساخ دهرا لكى يكون كيس الارباب مليئا وبطوننا خالية» .

ان التاريخ الثورى لعمال جنوب روسيا معروف . واعيد الى الاذهان ان الحلقات الاشتراكية-الديمقراطية الاولى ظهرت هنا فى عام ١٨٨٥ ، وكانت حلقة كهذه فى كامينسكويه ايضا ، حيث

كانت تصل فيما بعد جريدة «الايسكرا» اللينينية بانتظام . وفى سنوات مختلفة تولى العمل النشيط فى هذه الناحية بناء على تكليف من لينين تلامذته واشياعه مثل لالايانتس ونوغين وشيلغونوف وتسحاقايا وزيمليا تشكا وفوروفسكى وليبيشينسكى واوردجونيكيدزه . لكننى اود ان اخص بالذكر ثلاثة بلاشفة من الرعيل الاول من العمال الذين ساروا مدركين طريق النضال الثورى .

نظم ايفان فاسيليفيتش بابوشكين عام ١٨٩٧ فى يكاترينوسلاف «اتحاد النضال فى سبيل تحرير الطبقة العاملة» . ومعروف ان لينين نعت بابوشكين بمفخرة الحزب وبالبطل الشعبى ، وقال : «ان الشعب الروسى لولا اناس كهؤلاء لامسى ابدا شعب العبيد ، شعب الاقنان . وان الشعب الروسى ، ولديه اناس كهؤلاء سيحرز تحرره التام من كل استغلال» .

وفى حلقة بابوشكين انضم الى الحركة الثورية غريغورى ايفانوفيتش بتروفسكى . واطلق اسم هذا العامل الثورى الذى غدا فيما بعد رجلا بارزا فى حزبنا على المصنع الذى عمل فيه خراطا . وتقديرا لافضاله بدل اسم مدينة يكاترينوسلاف الى دنيبروبتروفسك .

ونيكيفور يفريموفيتش فيلونوف هو الثالث من اولئك الذين اردت ذكرهم وهو اقلهم شهرة . فى

حين انه ايضا كان بطل وشهيد النضال التحررى .

فى صيف عام ١٩٠٣ حين اجتاحت موجة اضرابات جنوب روسيا كله اصبح فى يكاترينوسلاف عضوا فى لجنة حزب العمال الاشتراكى-الديمقراطى الروسى ، جناح «الايسكرا» ، وحمل الاسم الحزبى المستعار ميخائيل زافودسكى (المصنعى — **المترجم**) بل انه كان فعلا رجلا مصنعيا وبرادا كفوءا وعاملا حقيقيا بروحه .

وحين وصل الى هذه البقاع نبأ الانقسام الذى حدث فى المؤتمر الثانى لحزب العمال الاشتراكى-الديمقراطى الروسى انتمى فيلونوف الى البلاشفة فورا . وكتب رسالة مطولة الى لينين ، لكنه لم يتلق جوابا لانه سرعان ما اعتقل ونفى الى سيبيريا . وكان فلاديمير ايليتش لينين قد بعث بالجواب . والتقت الرسالتان بعد عشرات السنين فى ارشيف معهد الماركسية اللينينية لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى . وبقى على جواب لينين تذييل كتب بيد كروبسكايا : «ارسلت الى ميشا زافودسكى ١٢/٢٢» .

وعلاوة على ذلك نشر مؤسس حزبنا رأى «عامل مصنع من مدينة «— ف»» فى كتيبه «رسالة الى رفيق عن مهماتنا التنظيمية» . ولم يلتق لينين بفيلونوف الا بعد ست سنوات . وكان ذلك فى باريس . وحين تذكرت كروبسكايا ان ميخائيل

زافودسكى كتب لهما رسائل هامة من يكاترينوسلاف فى وقت من الاوقات ابتسم فيلونوف وقال : «ذاك انا» . فاتضحت الامور عندئذ .

لقد قطع فيلونوف طريق الثورى المعتاد – اعتقال وحبس انفرادى وسجون وهروب واعتقال من جديد ونفى . كانت الجندرمة تلقى به فى زنزانات عفنة ، وهشمت رئتيه واوصلته الى الاصابة بداء السل مبكرا . وبالرغم من ذلك كبر حتى اضحى واحدا من المنظمين والدعاة البارزين فى الحزب . وفى ثورة عام ١٩٠٥ كان فى سمارا رئيسا لسوفييت نواب العمال . وكان عمره آنذاك لا يجاوز الثانية والعشرين .

وهاجر وهو مصاب بمرض لا يرجى شفاؤه واقام فى جزيرة كابرى ، فوجد نفسه فى لجة الصراع التكتلى . كان ذلك وقتا عصيبا . فقد بدأت سنوات الرجعية والبلبلة الفكرية وظهرت جماعات شتى مثل «الانسحابيين» و«بناة الله» و«التجريبيين الواحديين» . ولم يكن سهلا على العامل الثورى فقه هذا كله ، لكنه لم يخطئ الاختيار ، فسار وراء لينين . ومعروفة رسالة فلاديمير ايليتش لينين الى غوركى حيث ذكر محادثته الطويلة مع ميخائيل زافودسكى وعبر عن ايمانه العميق بان الطبقة العاملة ستصقل حزبها – «ستصقله اسرع مما يخيل احيانا من وجهة نظر الوضع المهجرى اللعين

وستصقله احسن مما يبدو عند الحكم من حيث بعض المظاهر الخارجية والمشاهد العابرة . وان اناسا من امثال ميخائيل هم الكفيل بذلك» .

اجل ، ان اشخاصا مثل بابوشكين وبتروفسكى وفيلونوف والوف غيرهم كانوا الكفيل بذلك . وانى اتحدث عن هؤلاء المناضلين المتفانين لكى يغدو اكثر وضوحا لماذا كانت الطبقة العاملة فى روسيا تسير دوما وراء لينين ، ووراء البلاشفة ، ووراء حزب الشيوعيين العظيم . وحين قامت ثورة ١٩٠٥ شارك عمال منطقة الدنيبر فيها انشط مشاركة . فعلى اثر سوفييتات نواب العمال فى بطرسبورغ وموسكو وايفانوفو-فوزنيسينسك وكييف ويكاترينوسلاف ولوغانسك والمدن الكبرى الاخرى تشكل سوفييت فى نجع كامينسكويه ايضا . وكان البلاشفة هم المبادرين فيه منذ البداية . وانتخب البلشفى بيسيدوف ، كهربائى المصنع ، رئيسا له . وفيما بعد تسنى لى الالتقاء به . وكان بعد الحرب الاهلية رئيسا لسوفييت مدينتنا ثم مديرا للمصنع .

واستمر النضال بعد انهزام الثورة الروسية الاولى . فبالرغم من الاعتقالات الواسعة وبالرغم من التذبذب الفكرى لم يكن للمناشفة والاشتراكيين-الثوريين مواقع وطيدة هنا بتاتا . واتسع النضال وعملت حلقات سرية ووقعت اضرابات ونظمت نضالات اول ايار . مثال ذلك ان «البرافدا» كتبت

فى ٤ تموز عام ١٩١٢ تقول : «اعتقل البوليس فى مصنع كامينسكويه امس ٢٢ شخصا بتهمة محاولة عقد اجتماع سياسى» . وذكرت الجريدة فى احد اعدادها التالية انه «اعتقل فى مصنع كامينسكويه ٣٢ عاملا» . لكن الروح الكفاحية لدى الطبقة العاملة كان مستحيلا قهرها .

تضمن منشور وزع فى مصنعنا خلال عام ١٩١٦ الدعوة التالية : «اننا لن نستطيع وقاية انفسنا من تكرر اهوال المجزرة البشرية الا باثارة انتفاضة مسلحة شاملة من طرف الى طرف والا بهدم طغيان القيصر نيكولاى الثانى الهرم هدما تاما وبتأسيس جمهورية ديمقراطية على انقاضه ... ليكن نضالنا موحدا شاملا ، لان فى الاتحاد قوة !»

ما كنت فى تلك السنوات بطبيعة الحال اقرأ هذه المنشورات ، وما كانوا يصطحبوننا نحن الصبيان الى مظاهرات اول ايار . وعموما كانت الامور بعيدة عن ان تكون كلها متيسرة لنا وواضحة . لكننى نشأت فى هذا الجو وكانت افكار العمال وآمالهم عزيزة علىّ منذ البداية . وقد اطلعت عليها عندما سمعت محادثات الكبار وشاهدتهم فى ايام الاضرابات العصيبة . وبوسعى ان اقول ان خيرة سمات الرجل العامل تكشفت لى منذ سنوات الطفولة .

انه كادح عظيم يلازمه الصبر بلا حدود . وهو

يعرف عمله واعتاد اداءه جيدا . وحتى فى زمن القيصر وحتى فى ظروف الاستغلال كان يمج العمل الردىء لانه يقدر دائما المهارة ويحترم جهده . وتكاد كل الثروات التى اختزنتها البشرية تكون مصنوعة بيديه المفتولة العضلات ، لكنه هو نفسه غير مشدود الى الملكية ونفسه لا يقتلها الحساب المغرض وتنبض فيه السعة والاقدام والشوق الازلى الى العدالة . وهو نبيه وفطن ويتحلى بالذكاء الحى والظرافة ، وهو همام وجرىء ووفى فى صداقته ومستعد لنجدة الرفاق فى اية لحظة . وكان صفير المصنع يدعو الجميع دفعة واحدة الى النوبة وهو الذى كان ايضا يرص العمال ويثير الشعور السامى بالاتحاد وعمومية المصالح وذلك التضامن البروليتارى الذى يصنع من ملايين الناس المختلفين عمرا وخبرة وعادات وقومية ، طبقة جبارة صلدة ثورية حقا .

وانا ابن هذه الطبقة ابا عن جد . وفى هذه البيئة تربيت وبها مرتبط بوشائج الدم ان صح التعبير . لقد ظل ابى عاملا حتى آخر ايامه . وكان جدى واخوالى عمالا ، وانا نفسى حين آن الاوان التحقت بالمصنع . ولحق بى شقيقى وشقيقتى وزوجها ... لقد وهبت اسرة بريجنيف عقودا كثيرة من حياتها للمصنع

الذى هو منها دما ولحما ، وانك لواجد لقبنا فى قوائم عمال المصنع اليوم ايضا .

– ٣ –

انى اسهب فى الكلام عن الاسرة لان هناك على وجه التحديد تقع منابع طباع الفرد وموقفه من الحياة . لقد قاسى والداى كل ثقل الظلم القيصرى وعاشا ردحا طويلا من العمر عيشة صعبة ، ولكن الوئام كان يخيم علينا دوما . ربما لم يخل الامر من احتكاكات ولكننا الاطفال ، لم نشعر بذلك ، حتى الاصوات العالية لم يقدر لنا سماعها .

كان والدى رجلا رزينا صارما ، ولم يدللنا . ولكنه بقدر ما اتذكر لم يعاقبنا بتاتا . ويبدو ان ذلك لم تكن حاجة اليه : فقد نشأنا بروح احترام الوالدين . كان ابى مديد القامة ، نحيفا وقوى البدن جدا ، مثل اغلبية عمال الدلفنة . كانت قسمات وجهه دقيقة ، وكانت له عينان طيبتان نبيهتان . وكان ابى يعتنى بنفسه دائما . وكان فى البيت حليق الذقن ، مهندم المظهر ، ويحب الترتيب فى كل شىء . ويبدو ان عاداته هذه انتقلت الينا . كان من صفات ابى الشعور بكرامته الشخصية باعلى درجة . وكان صريحا

لا يخاتل وحازما وكان رفاقه يحترمونه وكان يسرنا نحن اطفاله ان نرى ذلك .

كان ابى يقول لى : «طالما وعدت تمسك بوعدك . واذا شككت قل الحقيقة ، واذا خفت لا تفعل واذا فعلت لا تجبن واذا كنت واثقا من صواب رأيك اثبت على امرك حتى النهاية» .

وهكذا كان هو يتصرف . فما كانت اقواله تتباين مع افعاله .

تجمع فى نجع كامينسكويه قوم مختلفون . فادارة المصنع فى ايدى فرنسيين وبلجيكيين وبولونيين . وكان بين العمال ايضا عدد غير قليل من البولونيين ، لكن الاكثر من المحليين ، اى الاوكرانيين وكثير جدا من فلاحى يليتس وكورسك واوريل وكالوغا . وما كان ابى يفرق بين الكادحين . وكان ، كما نقول نحن الآن ، يقسم الناس لا بعلامة القومية وانما بالعلامة الطبقية . واتذكر ان ابن الشرطى او التاجر الغنى كان فى نظرى غريبا ولو انه روسى ، اما ابناء العمال ومنهم اولئك البولونيون فقد كانوا من «جماعتنا» .

وبعد الثورة حين انتقل المصنع الى يوم عمل من ثمانى ساعات كان لا بد من تشكيل نوبة ثالثة فعينوا ابى تكنولوجيا . وكان قد اشتغل لسنوات كثيرة عاملا فى الدلفنة ويعد استاذا فى عمله ، الا

ان الواجبات الجديدة تطلبت الى جانب الخبرة معارف كثيرة . فالتكنولوجى يقدم الطلبات الى ورشة افران مارتان ويعين من اية صهيرة يمكن الحصول على الصفائح المطلوبة واية انواع من الفولاذ تنتقى وكيف تدار المعالجة الحرارية لتقليل المفقود من الحرارة وما شاكل ذلك . والحقيقة ان الامر كان يتطلب حسابات هندسية . وبلغ ابى ذلك كله بخبرته لسنوات عديدة وبذكائه الفطرى .

وفى العهد السوفييتى انتقلنا الى شارع بيلين ، الى عمارة جديدة تعود للمصنع حيث استلمنا شقة من غرفتين فى الطابق الاول . وتخلى والدى عن احدى الغرفتين لاسرة عمى . وعشنا فى جو الالفة والمرح ، وغالبا ما كنا نستقبل ضيوفا وننشد الاغانى وندير المحادثات حتى منتصف الليل . وكانت امى لا تطلق سراح احد حتى تطعمه . كان المبنى قائما ازاء محطة تريتوزنايا . وكان هذا المكان يعد طرف المدينة . وكان وراءه حوش اخضر تزهر فيه اشجار الطلح . وكان الصباح يبدأ بتغريد الطيور .

وبرز ابى الى صفوف الطليعيين وانضم فى الثلاثينات الى حركة ستاخانوف ، وكان محاطا بالاحترام . وانشأ اطفاله خير تنشئة . فصرنا نعمل جميعا ونعين الاسرة فكان للوالد ان ينعم بالعيش

ولكنه مرض فجأة وتوفى قبل ان يبلغ الستين من عمره .

ظل ابى حتى آخر ايامه يعيش بهموم المصنع . وكان يبدى دوما اهتماما حيا بكل ما يجرى فى البلاد وفى العالم . وقد بقيت فى ذاكرتى محادثة غالبا ما كنت اتذكرها فيما بعد ، واود ان اعيدها هنا . كنت ذلك اليوم عائدا من النوبة وبدأت كالعادة اروى للوالد عن قضايا المصنع . لكن ابى كان يفكر فى امر فى داخله فقاطعنى قائلا :

— قل لى ، يا ليونيد ، ما هو اعلى جبل فى العالم ؟

— افيريست .

— وكم هو ارتفاعه ؟

اسقط فى يدى : أتراه يمتحننى ؟ قلت له :

— لا اتذكر بالضبط ربما حوالى تسعة آلاف متر . . . ما لك بهذا ؟

— وبرج ايفيل ؟

— اظن ثلثمائة متر .

صمت الوالد طويلا وراح يحسب مع نفسه ثم قال :

— اتدرى ، يا ليونيد ، لو كلفونا لصنعنا اعلى . لاعطينا قضبانا ورفعنا برجا الى ستمائة متر .

— علام يا ابى ؟

— وهناك فى اعلاه نضع عارضة ونشنق

هتلر . أتفهم ؟ لكى يرى الجميع من بعيد ماذا سيحدث لمن يبيت الحرب . ربما فى الدنيا اكثر من هتلر ، ربما يوجد آخر غيره . لكان من المكان ما يكفى للآخرين ايضا . ها ؟ ما رأيك ؟

عامل طول حياته وفى ذهنه افكار كهذه . ومتى ؟ فى وقت بعيد قبل الحرب وقبل انتصارنا وقبل محاكمة نورنبيرغ التى سمرت الرؤوس الهتلرية على عمود الخزى . رجل لم يدرس النظرية الماركسية ولكنه شعر بجميع خلجاته ، كما يقال ، بحق قضيتنا العظيم ورأى خطر الفاشية وعبر تعبيرا صائبا جدا عن موقف الطبقة العاملة والكادحين اجمعين من خطر الحرب .

عمرت والدتى نتاليا دينيسوفنا بعد والدى طويلا . ولئن كنت قد اقتبست منه ، كما كانوا يقولون عندنا ، المثابرة والاناة وعادة المضى بالامر حتما حتى النهاية ، فقد تركت لى امى ارثا هو حب المعاشرة والاهتمام بالناس والقدرة على مواجهة الصعوبات بابتسامة ومزاح . لقد ظلت طوال حياتها تعمل وانشأتنا واطعمتنا وغسلت ملابسنا ، وكانت ترعانا عند المرض . وانى اتذكر ذلك فاعتدت الى الابد احترام جهد المرأة ، جهد الأم الشاق والنبيل وغير البارز والذى لا يعرف الحدود .

حين عملت فيما بعد فى زابوروجيه ودنيبروبتروفسك ومولدافيا وكازاخستان كنت

انتهز كل فرصة لارى امى وكنت دوما اكن لها التبجيل البنوى العميق . واضيف الى ذلك ان المرء الذى لا يحب امه التى منحته الحياة وارضعته وربته ، ان انسانا كهذا بالنسبة لى شخص مريب . وليس عبثا يقول الناس : الوطن الام . فالذى يقدر على هجر الام ونسيانها سيكون ابنا عاقا للوطن ايضا .

كنت قد اخذت اعمل فى موسكو ، لكن والدتى ظلت ترفض الانتقال الىّ وعاشت فى ذلك البيت نفسه فى شارع بيلين فى تلك الشقة الضيقة نفسها مع اختى وزوجها وهو مهندس ماهر ارتقى الى منصب رئيس ورشة فى مصنعنا . وعرفت فيما بعد – لا من الاقرباء فهم لم يكتبوا لى عن ذلك – الحكاية التالية : ارتأت السلطات المحلية انه من غير المناسب ان تسكن ام امين اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى فى شقة كهذه وعرضت شقة اوسع وابهى وفيها كل وسائل الراحة . وينبغى القول ان بناء المساكن فى دنيبرودزيرجينسك قد انتشر فى ذلك الوقت على نطاق واسع . الا ان والدتى رفضت الانتقال مهما حاولوا اقناعها وظلت تعيش فى البيت القديم . كانت تذهب الى الدكان حاملة سلتها وكانت تغضب حين يقدمونها فى الدور . وظلت تدبر كل الشؤون المنزلية كالسابق وتحب استقبال الضيوف . وانى لا ازال اتذكر

شعريتها البيتية التى لم اذق شيئا لذيذا مثلها بتاتا . وفى الاماسى كانت تخرج ببلوزتها المتواضعة ومنديلها الداكن الى الشارع وتجلس على المصطبة ازاء البوابة وتتحدث مع جاراتها فى امر من الامور .

وكان ثمة ، كما يصادف احيانا ، اشخاص ارادوا استغلال معرفتهم بوالدة بريجنيف لمآربهم وكانوا يدسون لها شتى الشكاوى والعرائض لتحويلها «الى المراجع» . ويجب عليّ ان اقول انى دهشت لذكائها ولباقتها واعلى درجات تواضعها الذى تتحلى به . ولم تكلمنى امى فى ذلك ولا مرة ، وانما عرفت بدونها من الآخرين ، كانت تعتقد بانها لا يحق لها ان تتدخل فى شؤونى . كانت تعرف مدى احترامى اياها وحبى لها ولكن لو ساعدت احدا بناء على رجائها فى موضوع السكن مثلا فان ذلك يتم على حساب الآخرين الذين لم يفطنوا للاستعانة بها او لم يقدروا على ذلك وربما هؤلاء اشد حاجة الى المساندة . هكذا تقريبا كانت تفكر والدتى بينما كانت تقول ببساطة :

— هاتان يداى . — وترفع يدين شائختين منهكتين معروقتين . — سأساعدك بكل ما استطيع . اما ان اوصى ابنى بما ينبغى له ان يعمل فلا يمكننى ذلك . فاعذرنى ان امكن .

انتقلت اليّ والدتى الى موسكو عام ١٩٦٦ .

وامتد بها العمر الى ان رأت ابناء الاحفاد ، وعاشت فى سكينة ونفس راضية ومحاطة بمحبة كل من عرفها وكانت فخورة بالثقة التى منح الشعب والحزب وليدها البكر اياها . وكانت سعادتى الكبرى ان اجلس بعد العمل الى جانب امى واسمع صوتها العزيز وانظر الى عينيها الطيبتين المشعتين .

— ٤ —

واذكر هنا انه فضلا عن ان والدى كان متعلما فان والدتى كانت ايضا تعرف الكتابة وتهوى القراءة . وهذا امر كان نادرا فى حارة عمالية فى اوقات صباها . ولم افهم الا بعد ان بلغت سن الرشد كم كلف والداى عزمهما على اعطائنا نحن الاطفال تعليما حقيقيا . وقد ارادا ذلك وحققاه . فحين بلغت التاسعة من العمر قبلت فى الصف التحضيرى من الثانوية الكلاسيكية للبنين فى كامينسكويه . واتذكر ان امى ظلت غير مصدقة انهم قبلونى بل ان الشارع كله ظل مستغربا .

لم يكن جائزا فيما مضى دخول ابناء العمال الى المدرسة الثانوية عموما ، وهنا ايضا لم يفتحوا الابواب على مصاريعها وانما واربوها قليلا فقط .

يبدو ان ذلك كان سببه من جهة متطلبات الانتاج النامى ومن جهة اخرى تأثير الاحداث الثورية فى روسيا . على اية حال نظمت لنا مسابقة خاصة واختاروا الاجدرين ، قرابة واحد من خمسة عشر ، ثم ان مجموع من قبلوا من ابناء العمال فى تلك السنة لم يتجاوز السبعة . اما سائر التلاميذ فقد قدموا من «الجالية العليا» وكانوا ينتمون الى اوساط الموظفين واثرياء التجار ورئاسة المصنع .

اطلقوا علينا صفة «اصحاب المنح الحكومية» . وهذا لا يعنى اننا كنا نتقاضى منحا دراسية ، وكل ما يعنيه انهم كانوا يعفوننا من دفع اجور الدراسة بشرط النجاح بامتياز . وكانت هذه الاجور عالية فوق القدرة ، وهى ٦٤ روبلا ذهبا . ولم يكن يكسب هذا المبلغ حتى اكثر العمال تخصصا ، وطبيعى ان ابى ما كان بامكانه دفع نقود كهذه مهما كان شديد الرغبة .

كانت دراستى مثل سائر اصدقائى جيدة . فاولا كان يعجبنى ان اعرف اشياء جديدة ، وثانيا ، كان الوالد يتتبع دروسى صارما ، وثالثا ، ان الدراسة السيئة كانت غير ممكنة اذ ان ذلك يعنى بالنسبة لنا الفصل من المدرسة .

كانت المعاملة معنا ، نحن ابناء العمال ، غير ما هى مع التلاميذ من «الجالية العليا» . فكان يتملكنا الغضب والرغبة الجامحة فى اثبات انه ليس حقا

الظن اننا غير جديرين بالعلوم ، واننا اغبى من ذرية الاسر الغنية الذين كان يغفر لهم الكثير .

كان معلمنا المحبوب كوفاليفيتش معلم التاريخ . كان يدير درسه خير ادارة ويحدثنا لا عن القياصرة وحدهم وانما عن رازين وبوغاتشوف . ومنه علمت لاول مرة بانتفاضة الديسمبريين وسمعت باسمى تشيرنيشيفسكى وهرتسين . علمنا ان نفكر وان نفهم سنن تطور المجتمع . وادركت فيما بعد انه كان يتجاوز بعيدا حدود المنهج الرسمى . ما كنا نحدس بطبيعة الحال ان افضل معلمينا هو بلشفى ومناضل سرى . وقد عرفنا ذلك فيما بعد حين قتله الدينيكينيون بالرصاص . ويوجد الآن فى مدينة دنيبرودزيرجينسك شارع كوفاليفيتش . ربما ليس كل الشباب يعرفون تكريما لمن سمى هذا الشارع ، ويسرنى اننى استطيع الحديث عن ذلك .

تدحرج شباط عام ١٩١٧ حتى كامينسكويه بهزيم رعد بعيد . انهار الاستبداد القيصرى . لكن الحرب استمرت والطوابير من اجل الحصول على الخبز لم تقل . وظل الاقطاعيون مهيمنين على الارض وظلت المصانع يملكها الرأسماليون . و«الجالية العليا» كانت ترنو بتعال كعادتها ولكن ليس بدون رعب ، الى «الجالية السفلى» . بقى الارباب اربابا والعمال عمالا .

اما ايام ثورة اكتوبر العظيمة فقد بقيت ، ولعلي

اقول انغرست فى ذاكرتى الى الابد على نحو مغاير تماما .

لقد هدرت صفارة المصنع فجأة فى غير ساعتها . وكأن الزمان عندها انشطر شطرين فبدأ حسابه الجديد . كان ذلك امرا غير معتاد تماما بالنسبة لنا ، فاندفعنا وراء آبائنا نحو المصنع وكادت المدينة برمتها تعدو اليه . وتناثر الرجال من الورش ودوت اصوات الناس دويا رهيبا وماج بحر لا حدود له من الرؤوس فى الساحة . وشوهدت قبعات الجنود الجرحى العائدين من الجبهة ولاحت مناديل النساء هنا او هناك ولكن الاكثرية كانت من العمال المعدنين . ورسخ فى ذاكرتى الشعور بالحماسة الشاملة ونشوة النصر الحقيقية .

وبدأ اجتماع حاشد خطب فيه ارسينيتشيف اول قائد لبلاشفة كامينسكويه . وكان يعمل عندنا فى ورشة المراجل وانجذب الى النضال الثورى مبكرا . وكان يطبع المنشورات ويوزعها . وبعد ذلك حين صاروا يتعقبونه رحل الى بتروغراد واجتاز طريقا مجيدا ، طريق النضال السرى . ولم يخلص من النفى الى سيبيريا . وكان بين اولئك الذين استقبلوا لينين فى محطة فنلندسكى ، واستمع الى خطبته المشهورة التى اختتمت بالنداء «عاشت الثورة الاشتراكية !» وفيما بعد فى سنوات الحرب الاهلية

قتل البيض ارسينيتشيف بالرصاص . وكنت ادرس فى معهد التعدين الذى يحمل اسم ميخائيل ارسينيتشيف .

لقد تحدث فى الاجتماع حينذاك عن انتصار البروليتاريا العظيم وروى عن مؤتمر السوفييتات الثانى لعموم روسيا ، واعلن انه قد شكلت حكومة العمال والفلاحين الاولى فى العالم ويترأسها فلاديمير ايليتش اوليانوف-لينين . فماج الناس وهاجوا ودوت الهتافات «هورا !» . واتذكر ايضا كيف رحت انظر بقلب واجف ورأس مرفوع الى قطعة القماش الاحمر الخفاقة على خلفية سماء الخريف القاتمة .

وبودى ان اضيف ان كل جيل يرث من الاجيال السابقة ما كسبته وحققته وبنته وصنعته ، ويمضى قدما ويواصل طريقه على المستوى الجديد ، على الدرجة الجديدة من التطور التاريخى . يخيل للشباب احيانا ان الامر الرئيسى بات وراءه . ووراءه الثورة ووراءه معارك الحرب الاهلية وسنوات التعمير الاشتراكى فى البلاد العملاقة ، ووراءه بطولات الحرب الوطنية العظمى . . . هكذا يظن الفتيان والفتيات . ولكن يحل وقتهم وينتقل قصب السبق من الجدود والآباء الى ايديهم . فيتضح عند ذلك ان من نصيبهم ايضا محنا لا يستهان بها واعمالا شامخة .

ويشيع الدفء فى نفسى اليوم ان ارى ان لدى

اجيال المناضلين الثوريين وبناة الخطط الخمسية الاولى والمحاربين فى الحرب الوطنية قد نما جيل لائق . ويمكننا ان ننيط بالكمسمول وبكل شباب البلاد السوفييتية مهمات كان مستحيلا من قبل تصور سعتها ونرى انهم يتحلون بالشعور النبيل بالمسؤولية الشخصية عن كل ما يجرى على ارضنا وانهم يسهمون فى كل مبادرة بهمتهم الرومانسية ، ولعلي اقول بتحليق الفتوة . ان الشبيبة تنمو مؤمنة بالشيوعية ، عميقة الاخلاص لقضية الحزب ، لقضية لينين العظيم ، وفية لمثل ثورة اكتوبر .

هذا ما افكر فيه حين اتذكر راية الثورة الحمراء التى رفرفت على خلفية سماء الخريف العابسة . لن ينمحى من ذاكرتى ابدا وصول ثورة اكتوبر الى نجعنا العمالى . رفعت الراية عاليا جدا على مدخنة فرن الصهر العالى رقم واحد .

* * *

كان تعقد الوجود الاجتماعى عظيما فى سنوات صباى عند ملتقى العصرين . وكان ذاك وقتا صعبا على عمال مصنع دنيبروفسكى . فقد حلت القوات الالمانية محل سلطات «الرادا» المركزية . وظهر فى اعقابها بتلورا الذى قلعته خيالة الجيش الاحمر من كامينسكويه فى كانون ثانى عام ١٩١٩ . لكن بعد نصف عام جاء البيض ثم الماخنويون

والغريغوريفيون . طفت كل الحثالات الى السطح . فراح يتحذلق فى الاجتماعات «الاستقلاليون» الاوكرانيون والمناشفة والديمقراطيون-الدستوريون والاشتراكيون-الثوريون والفوضويون . لقد اجتزنا فى تلك السنوات تربية سياسية ملموسة جدا وكنا نزداد رجولة بالساعات لا بالايام ، كما يقال .

وثمة شىء آخر بودى ان اؤكده مرة اخرى : كانت مدينتنا عمالية وكان جل سكانها عمالا ، ولهذا كانوا عندنا يعدون دوما الثورة البروليتارية ثورتهم وحزب البلاشفة حزبهم وسلطة السوفييتات سلطتهم ! اى ان عمال المصنع لم تكن لديهم مشكلة الاختيار ومسألة مع من يسيرون وجانب من يلتزمون . فابى ، مثلا ، لم يكن منتميا الى الحزب ، والادق انه لم يكن منتميا لاى حزب ولكنه منذ السنوات الاولى للثورة ايد البلاشفة تأييدا نشيطا ، وفيما بعد حين انتميت الى الكمسمول ثم صرت عضوا فى الحزب الشيوعى استقبل الوالد والوالدة ذلك استقبال حدث كبير وسار .

فى السنوات الاولى الصعبة التى تلت الثورة ، وما كادت تخمد اطلاقات الحرب الاهلية ، صبوا فى ورشة الصب بمصنعنا تمثالا من الحديد الزهر ، يمكن القول انه فريد . وما يزال منتصبا حتى اليوم فى واحدة من اجمل ساحات دنيبرودزيرجينسك . يرتقى بروموثيوس المارد الاسطورى عمودا طويلا .

وقد تحطمت اغلاله وفى يده القبس النارى . وعند قدميه نسر طعين ظل يعذبه قرونا . كان هذا الرمز واضحا وكان فى سنوات صباى مفهوما للجميـــع . اذ كنا ندرك اية طعنـــة اصابت النسر القيصرى ذا الرأسين . وكانت النار الناضحة بالحياة فى ايدى المعدنين دوما . لقد ألفوا نشيدا من المعدن يمجد ذلك الذى انتزع النار من الالهـــة وقدمها للناس لتظل لهم ابد الابدين . انه تمثـــال لبروموثيوس وهو فى الوقت نفسه نصب للطبقة العاملة .

وحل اليوم المشهود فى حياتى . اصبحت ، وانا فى الخامسة عشرة ، عاملا زودتنى المدرســـة التى حولت الى مدرسة العمل الاولى لمدينة كامينسكويه بشهادة انهاء الدراسة . فكان لا بد من ان اعمـــل واساعد الاسرة . فاخذونى فى المصنـــع وقادا ثم عينونى برادا . والممت بهاتين المهنتين بسرعة لا بأس بها . وكان المصنـــع معروفا لديّ منذ وقت بعيد . وكان ضجيج الورشة والقرقعة ورائحـــة المعدن المحمى – كان كل شيء هنا يلائم مزاجى .

وهكذا حل اليوم المنشود حين صفرت صفارة المصنع لى ايضا ، فخرجت مع ابى الى النوبة وعملت مثل الآخرين . كادت عضلاتى تصرخ ألما والعرق يغشى عينىّ . ولكنى كنت سعيدا حقـــا . وكانت الفرحة بعد ذلك ايضـــا : عدت ألى البيت وخلعت الصديرى المسود من الدخان . واخذت امى ، كما

كانت تفعل مع ابى ، تصب الماء البارد على يدىّ فغسلت وجهى . واتذكر انى رفعت رأسى فشاهدت الدموع تترقرق فى عينيها الطيبتين .

– ما بك ، يا ماما ؟

– من الفرح ، يا ليونيد ، من الفرح . ها انت ذا ايضا صرت معيلا .

سبق لى ان تحدثت عن ذلك واكرر هنا : انى اتذكر دوما مرشدى ورفاقى الاكبر الذين عملت معهم فى مصنع دنيبروفسكى . لقد اعطونى المهنة الاولى وعلمونى علم الحياة المعقد وأرونى قوة الرجل الكادح العظيمة وجماله الروحى .

ان جامعات كهذه لا تنسى .

الحس الوطنى

-١-

الحس الوطنى لدينا جميعا متطور جدا . حس رائع ! وهو يقتات ، طبعا ، ليس من تأمل جمال ارضنا فقط . فينبغى ، كما يقال ، ان تتأصل فيها بالجذور . وحين يكد المرء فيها حتى يتصبب عرقا وحين ينمى القمح ويضع اساسا لمدينة ويشق طريقا جديدا او يحفر خندقا فى هذه الارض لكى يدافع عنها – حينذاك سيفهم تماما ما هو الوطن .

واقول ذلك لاوضح ان اوان معرفة الوطن الام بدأ لديّ فى اوائل العشرينات . وكان لى ان «اذرع» الوفا كثيرة من الكيلومترات فى القطارات والسفن النهرية واحيانا على صهوة الحصان والاكثر مشيا على الاقدام . بدأ كل ذلك من سفر الى الناحية التى هى مسقط رأس ابى . وعرفت فى ارض كورسك ما هى الحياة الريفية وشاركت فى جهد الفلاح .

وساروى ما الذى سبب هذه الانعطافة الحادة فى حياتى . وافق الخراب بعد الحرب الاهلية قحطا رهيبا فى حوض الفولغا . حينذاك ، فى سنتى ١٩٢١-١٩٢٢ داهم الجفاف والجوع اوكرانيا ايضا . فاحترقت الزروع فى كل ارجاء منطقة يكاترينوسلاف . وكانوا يعطون كل عامل نصف رطل من الخبز فى اليوم بل حتى هذا ليس دائما . ولكن طالما ظلت النار تستعر فى الافران وطالما ظلت المداخن تتنفس وطالما ظل المصنع يعمل كنا نحن نعمل ايضا . ثم حل اليوم الاسود حين توجب ايقاف مصنع التعدين دنيبروفسكى .

ساد الهدوء فى الورش وعم الاهمال كل مكان وصارت الطرق المؤدية الى المصنع تتغطى بسرعة مدهشة باعشاب طفيلية لا تهاب حتى الجفاف . فتفرق الناس الى القرى المجاورة وقايضوا بما استطاعوا المواد المغذية . وكان البعض ينتشل من المصنع الصفائح الحديدية التى كان الاغنياء من القرويين يأخذونها ليصنعوا منها اطواق البراميل . لكن اسرتى لم تتميز بهذه «الهمة العملية» ، ثم اننا ، كما اتضح ، لم ندخر شيئا للمقايضة . ولم يعد والدى وانا معيلين وامسينا عالة .

وفقدت المعيشة فى كامينسكويه كل معنى . افتتحوا بورصة للعاطلين ، لكن هذا لم يوفر عملا . وتفشت الامراض وبدأ الجوع . وكل

يوم كان يموت انسان فى البيوت المجاورة . وخلت المدينة من ساكنيها . وكان علينا نحن ايضا ان نترك المكان . واتذكر اننى حين ارتحلت القيت نظرة للمرة الاخيرة لتوديع المصنع فرأيت اعشاش الغربان السود على المداخن وعلى المدرجات وعلى سطوح الورش . بقى فى نفسى اثر كئيب : الغربان تحوم فى السماء وتحتها مصنع عديم الحياة .

وهكذا كانت العودة الى الارض اضطرارية . ولكن الرحلة المفاجئة افرحتنى لطراوة عودى ، ولانها كانت الاولى فى حياتى . زد على ذلك انى كنت اود منذ وقت بعيد ان ارى مسقط رأس ابى وان اختبر نفسى فى العمل الريفى . وكنت ادرك جيدا مدى اهمية هذا الجهد للشعب وضرورته الحيوية للبلاد التى عرفت قيمة الخبز الحقيقية . فحين شغلوا مصنع دنيبروفسكى من جديد وحين عاد ابى مع امى والطفلين الاصغرين الى البيت رأيت رغم شوقى الشديد الى ورشتى الحبيبة انى ملزم بالبقاء وعملت طويلا فى الزراعة على ارض كورسك وفى بيلوروسيا وفى الاورال .

ومن ذلك الوقت وجدت فى نفسى ميلين شديدين ، الامر الذى اريد ان اتحدث عنه الآن . لقد انتقل احترام الجهد الريفى اليّ من الطفولة — من الوالدين ومن مجمل الوضع فى كامينسكويه وضواحيه . كان نجعنا ذا خصائص متميزة . فقد

بقى قرية بالنصف مع انه كانت تقطنه بروليتاريا حقيقية مصنعية . وكانت تعيش فى قرارة نفس البروليتاريين روح فلاحى الامس القريب . وكان ابى كثيرا ما يحدثنا كيف انه نفسه ذاق «نحس الفلاحة» . ولم تكن التعاسة قليلة فى تلك المعيشة ، لكنى كنت ارى باى حزن خفى وحنان كان ابى يتحدث عن الطلاقة الريفية وعن الحرث والحصاد والدرس وعن الخبز المكتسب بيديه .

فطبيعى انه ليس صدفة بتاتا ان النظرة الى الخبز فى اسرتنا كانت فى غاية الاحترام . ورسخت فى ذاكرتى طوال حياتى العبارة المرحة التى كنا نسمعها من امى عند المائدة كل يوم : «هيا يا اولاد اكلتم فاجمعوا الفتات وكلوه !» ليس بخلا وليس شحا ان ولدت هذه الكلمات فى الشعب . انها تنمى فى الاطفال الحرص ، ولعلي اقول ، النظرة المقدسة الى الخبز .

واحسب انه بدون هذه النظرة الى الخبز الكفاف لا يمكن ان ينشأ انسان عزيز النفس فاضل بكل معنى الكلمة . صاروا يعلقون فى المطاعم والمقاهى ودكاكين الخبز دعوات فى صياغات جميلة الى الحرص على الخبز . هذا عمل مفيد طبعا . ولكنه لامر يبعث الاسى ان ظهرت حاجة الى هذه الدعوات . فروح الحرص ينبغى ان تغرس منذ نعومة الاظفار وان يغرسها الوالدان اولا فى الاسرة .

من المناسب التذكير هنا ان بونتش-برويفيتش مدير ديوان مجلس مفوضى الشعب سأل فى عام ١٩١٨ : «هل من الممكن يا فلاديمير ايليتش التعبير بكلمة واحدة عما نناضل فى سبيله الآن ؟» . فاجاب لينين فورا : «الخبز» . وكتب فى تلك السنوات يقول ان النضال فى سبيل الخبز هو النضال فى سبيل الاشتراكية .

انى اذ اعود ذهنيا الى سنوات شبابى ارى الآن ان العمل فى الريف كان لازما وهاما للدولة . وانا هنا تعلمت الكثير وفهمت الكثير . ورجعت فيما بعد الى دنيبرودزيرجينسك وجئت الى المصنع وصرت مهندس تعدين . لكن الوقت نفسه لم يسمح بان احتجب عن الشؤون الريفية تماما . لقد تشابكت تلك الشؤون مع تجربة الحياة فى المصنع واتحدت واكمل بعضها بعضا . وكل حياتى بعد ذلك مارست هذا وذاك ، بدرجة متعادلة تقريبا . التحم الميلان فى كل واحد . وانى ممتن للمصير على انه اعطانى دروس الحياة فى حقل الفلاح وتحت سقف المصنع على حد سواء .

لكنى استبقت الاحداث هنا . فحينذاك بعد ان عرفت حياة القرية فى فترة من اصعب الفترات وعملت فى الحرث والبذار والحصاد وتعلقت بالارض تعلقا حقيقيا ، انتميت عام ١٩٢٣ الى معهد تنظيم استثمار الارض المتوسط فى كورسك . اديت

امتحانات القبول واجتزتها حسنا – اعطونى منحة الدولة المزيدة .

كان المعهد المتوسط عريقا ذا قاعدة تعليمية جيدة وتقاليد تقدمية قديمة (اقول للمناسبة انه تعلم فيه بونتش-برويفيتش ايضا) . وتلقينا خلال اربع سنوات من التعليم معارف جيدة فى الرياضيات والفيزياء والكيمياء . ودرسنا على مستوى المعهد العالى المواضيع الخاصة كالمساحة والجيولوجيا العامة وعلم التربة والجغرافيا والاحصاء الزراعى . قرأنا الابحاث اللينينية – لا فى المجلدات المعتادة الآن التى تضم المؤلفات الكاملة وانما فى كراسات خفيفة تنبعث منها رائحة الطبع . ودرسنا بناء النظام السوفييتى وقوانين الدولة السوفييتية . وقد اقتنعت عند اول ممارسة فى قضاء شيغرى بان هذه المعارف لازمة جدا لاختصاصنا من الناحيتين النظرية والتطبيقية معا .

وقبلونى فى الكمسمول وعمرى سبعة عشر عاما ، فبعدها صرت اعد نفسى ملزما بالمشاركة فى كل المبادرات الاجتماعية . وينبغى القول انها لم تكن قليلة . كنا نخرج الى العمل الشعبى ، ونظمنا الحملات الجماهيرية «لمحو الامية» و«مساعدة المشردين» وفتحنا فى القرى قاعات للمطالعة ، واصدرنا جرائد حائطية وعرضنا تمثيليات ونظمنا اجتماعات سكان القرى ، وكنا نشرح للاجراء

الزراعيين حقوقهم . فكنت ترانا فى كل مكان وكنا مهتمين بكل شىء .

-٢-

ووجب حينئذ ان استوعب حقيقة واحدة هى ان للوقت ، فضلا عن الامتداد ، حجما ايضا . يمكنك ان تبذر ايامك وساعاتك بلا غاية ويمكنك ان تكثفها وتعصرها وتشحنها حتى النهاية ، وعندها تجد امامك متسعا من الوقت لصنع الكثير جدا .

كانت معيشتنا فى مسكن الطلبة فى شارع خيرسونسكايا عيشة جوع وبرد احيانا . وكان كل واحد منا يلبس ما تقع عليه يده : كنا نرتدى قمصانا من الساتين وقبعات عمالية مزيتة وسدارات بوديونى وغيرها . اما ربطة العنق فطبيعى اننا كنا نرفضها حينذاك . لكن كمسمول العشرينات كان يعيش حياة زاهية وممتعة . كانت حاجات البلاد حاجاتنا ، وكنا نحلم بالغد الوضاء للبشرية كلها ونصخب ونتجادل ونعشق ونقرأ وننظم انفسنا الاشعار .

لم نكن نعد انفسنا عارفين فى الشعر . وكنا نضع فوق كل اعتبار آنية الاشعار ووجهتها السياسية . وكان لدينا شعراؤنا الكمسموليون .

كنت ذات مرة مسافرا فى قطار ، وكانت تجلس هناك فى الحافلة فتاة فى مثل سنى ، طالبة ايضا . وتحادثنا وارتنى الفتاة دفترا فيه اشعار من امثال ما يجمع فى الالبوم عادة . لكن ما يميز هذا الدفتر هو انه تضمن قطعة شعرية لم يسبق ان صادفتها بتاتا – «مرثية فوروفسكى» . وكنا فى ذلك الوقت فى اسى شديد لاغتيال سفيرنا . فاثارت الاشعار شجونى فحفظتها فورا . من السطر الاول – «كان ذلك فى لوزان . . .» – حتى المقطع الاخير :

وفى الصباح فى نزل اسمه «استوريا»
كان سفيرنا صريعا بأيد اثيمة
وهكذا سجلت ضحية اخرى
فى سفر ضحايا روسيا العظيمة

اتذكر ان ماياكوفسكى قدم الى كورســـك . وطبيعى اننا الكمسموليين اندفعنا الى نادى السكك حيث كانت امسيته . وكان الجمهور «الانيق» قد استقبله بالهجوم . وصرخوا من الصالة : «انت تعد نفسك من انصار الجماعة فعلام تكتب دوما : انا ، انا ، انا ؟» فجاء الرد فورا : هل تعتقدون ان القيصر كان من انصار الجماعة ؟ ألم تروا كيف كان يكتب دائما : «نحن نيكولاى الثانى» . ودوى ضجيج وقهقهات وتصفيق . واليكم مشهدا آخر . نهض من الصف الاخير شاب وشابة يبدو انه كان امتع لهما لو

انهما بقيا لوحدهما لا سماع ماياكوفسكى . فحين مرا ببطء بمحاذاة الصف دوى صوت الشاعر الهادر . ومد ماياكوفسكى يده نحوهما وقال : «يا رفاق ، التفتوا الى هذين الخارجين على الصف» . فانفجـــر الضحك والتصفيق العاصف من جديد .

تلا ماياكوفسكى مقاطع من قصيدته «فلاديمير ايليتش لينين» . اصغينا اليه مبهورى الانفاس . كنا قد تجرعنا مرارة وفاة لينين قريبا وبقى ألم الشعب الشامل ألما عميقا فى دخيلة كل فرد منا .

معروفة حتى اللحظات الاخيرة
حياة اوليانوف القصيرة
اما حياة الرفيق لينين المديدة
فلتكتب وتكتب مرارا عديدة .

كان لهذه الكلمات وقع شديد فوق العادة . كان ماياكوفسكى يقرأ هادئا وكأنه يفكر بصوت مسموع ، ولكن صوته الجهير كان يصل الى الصف الاخير . وفعلا ، جعل اسمى المفاهيم لدينا «تسطع على نحو جديد» .

لينين والحزب
شقيقان توأمان
ايهما اغلى على التاريخ الاب ؟
ان قلنا الحزب عنينا لينين
ان قلنا لينين عنينا الحزب .

كانت هذه الاسطر المسبوكة تلج الى الروح والقلب لتبقى مذكورة بحد ذاتها .

وقرأ ماياكوفسكى ايضا فى الامسية قصيدة «لعمال كورسك الذين استخرجوا الفلزات الاولى . . .» . لقد دفعتنى هذه القصيدة الى تذكر المصنع – الافران العالية وافران مارتان . واعتورنى الحنين الى مسقط رأسى من جديد . ولكن فى ذلك الوقت بالضبط فى عام ١٩٢٧ انهيت الدراسة وصرت من خبراء تنظيم الاراضى ، وباشرت العمل – فى احد اقضية مقاطعة كورسك . وامضيت الموسم الزراعى التالى فى بيلوروسيا بالقرب من اورشا . ثم تسلمت تعيينا جديدا فرحلت – لا وحدى الآن بل مع قرينتى – الى الاورال ، الى ناحية ميخايلوفسك اولا ثم الى ناحية بيسيرت . وكنت قد تعرفت الى زوجتى المقبلة فى امسية كمسمولية . وكانت قد نشأت فى اسرة عمالية مثل اسرتى . وقدمت الى كورسك من بيلغورود للدراسة ايضا . ومن ذلك الوقت كانت فيكتوريا بتروفنا دوما وتظل بالنسبة لى اكثر من زوجة وام لاطفالى انها صديق حقيقى وصديق حميم .

كان لا بد لى من ان ابقى هناك طويلا . وكم من الفراسخ قطعتها على ارض الاورال وعملت كثيرا واحببت هذا الطرف واهاليه وطبيعته الشامخة الى الابد .

كان ذاك وقتا معقدا ، حين كانت تتهدم اشكال

العيش القديمة المتأصلة . اما الجديد فقد كانت نبتاته تشق التربة توا . فكان لا بد من البحث عنها باصرار ودعمها وتنميتها . واقر المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعى (البلشفى) لعموم الاتحاد السوفييتى الذى انعقد فى كانون اول عام ١٩٢٧ برنامج مواصلة بناء الاشتراكية فى البلاد . وتطبيقا للخطة التعاونية اللينينية رسم المؤتمر نهج اشاعة التعاونيات فى الزراعة . وكان الشعب السوفييتى بقيادة الحزب الشيوعى ينهض باعمق التحويلات الاجتماعية فى القرية موجها اياها نحو جادة الاشتراكية . وفى تلك السنوات الاربع حصرا – من ١٩٢٧ حتى ١٩٣١ – اتفق لى العمل فى القرية وانشاء المزارع التعاونية . فكنت فى غمار احداث الثورة الاجتماعية العظمى فى الريف .

كان الاشخاص من تخصصى غالبا ما يوصفون سابقا بالمساحين ، اما الآن فقد تغيرت الصفة وصرنا خبراء فى تنظيم الاراضى بالمعنى الحقيقى للكلمة . كان الناس يشكلون التعاونيات الزراعية فيوحدون فيها الارض والماشية والمرافق الاقتصادية والادوات . فكان واجبنا نحن الخبراء فى تنظيم الاراضى اكثر من محو الحدود بضم قطع الارض الفردية المشتتة فى حقل جماعى واحد على الخارطات . فقد كان لا بد من فعل ذلك على اساس اجتماعى وعلمى واقتصادى وتكنيكى جديد انطلاقا من مصالح المزارع الكبيرة

الاشتراكية المعدة لتطبيق طرائق الزراعة الحديثة والمكننة الواسعة فى كل الاعمال مستقبلا .

وقد رسمنا خارطات جديدة هى الخارطات الاولى لاستثمار الارض المنظم العلمى فى الكولخوزات (المزارع التعاونية) . وظلت خارطاتنا تخدم الكولخوزات طويلا وافاد منها المهندسون الزراعيون بعد الحرب (١٩٤١–١٩٤٥) ايضا . اما انا فقد ساعدتنى خبرة تنظيم الاراضى والتى اكتسبتها فى فترة انشاء المزارع التعاونية الاولى خير مساعدة فيما بعد عند تنظيم مئات السوفخوزات الجديدة (المزارع التابعة للدولة) فى الاراضى البكر فى شمال كازاخستان .

شعرت لاول مرة فى السنوات التى عملت فيها كخبير فى تنظيم الاراضى بأنى ممثل السلطة السوفييتية المخول فى انظار مئات الاشخاص . اذ ان الفلاحين كانوا يحكمون على سياسة الحزب حين ينظرون كيف تطرح الماسحة وخشبة القياس وكيف ترسم الحدود بين الاراضى وكيف يسلك الشخص حين يصطدم بالكولاك : كان يغدو هنا فى الحقل واضحا للجميع مع مَن السلطة السوفييتية وضد مَن .

واتذكر جيدا الجرارة الاولى التى اهداها عمال السكك فى بيسيرت للفلاحين . كانت هذه «فوردزون» صغيرة وضعيفة ولكنها استدعت نشوة لا تقل وربما تزيد عن القمر الاصطناعى الاول . لم يكن ذاك مجرد

خروج ماكنة الى الحقل . كانت هذه اداة لاعادة بناء القرية اجتماعيا . وكانت تلك داعية فعالة للنظام التعاونى . وبث الكولاك المحليون واعوانهم اشاعة تزعم بأن الارض لن تلد تحت «الحصان الحديدى» . ولكن غلة القمح غدت اعجوبة الاعاجيب . وآنذاك اضرموا النار فى العنبر ليلا ولم يتسن انقاذ القمح الا بفضل بطولة فلاحى بيسيرت التعاونيين .

وهذا كله لم يكن فى السينما ولا فى الكتب وانما فى الواقع المعاش . لقد اصطدمت الى جانب الكمسموليين الآخرين بالكولاك فى الحقل وجادلتهم فى الاجتماعات الريفية . كانوا يهددوننا بالخوازيق والمذارى وبالكتابات الحاقدة ورشق النوافذ بالاحجار . وذات مرة قرأنا فى الجرائد ان الكولاك اقترفوا فى مقاطعة تومين المجاورة جريمة دنيئة هى من اولى الجرائم التى دوت فى البلاد كلها فى ذلك الوقت ، فى فترة اشاعة التعاونيات على نطاق واسع . وقد تربصوا ليلا بسائق الجرارة بيتر دياكوف النائم فى المقصورة وصبوا عليه الكيروسين واشعلوا فيه النار . تألمنا اشد الألم لهذه الميتة الرهيبة لنصيرنا ورفيقنا الذى لا نعرفه ولكنه اصبح فورا واحدا منا . فازددنا حزما وشجاعة فى شن الهجوم على الكولاك المقيتين .

وسرعان ما ظهرت اغنية عن ذلك السائق . واحببناها وغنيناها كثيرا ما وفى غالب الاحيان وقوفا فى ذكرى بطل التعاونية .

فى الدرب الوعر او فى السكة المطروقة
طريقنا واياك واحد
امض بنا على الجرارة يا سائقنا ،
امض بنا الى الافق الواعد !

كنا ننهى هذه الاغنية الرقيقة العاطفية الشجية ونحن نوجه كلماتها الى انفسنا ، بصوت هادر :

هذه الوحوش تكشر وتنبح
بغلتنا الوفيرة لا تفرح
الكولاك اليك يا كمسمولى يتسلل
لا تغفل ، يا عزيزى ، لا تغفل !

ولم اعرف الا بعد سنين ، ربما بعد ثلاثين سنة ، ان بيتر دياكوف بقى حيا بمعجزة بل اجتاز الحرب كلها . باختصار انه انسان من الاغنية حقا .

كان ذاك عام ١٩٢٩ الذى دخل التاريخ بوصفه عام الانعطافة العظيمة على كل جبهة البناء الاشتراكى الهائلة حين بدأ الى جانب تطوير الصناعة الكبيرة – الفرع الاساسى فى الاقتصاد الوطنى – انشاء الزراعة الكبيرة الممكننة فى البلاد .

بعث اليّ الرفاق من لجنة الحزب الشيوعى السوفييتى لمقاطعة سفردلوفسك مؤخرا ببعض الوثائق العائدة لتلك السنوات .

هذا مقتطف من محضر اجتماع لجنة الحزب الشيوعى (البلشفى) لعموم الاتحاد السوفييتى لناحية بيسيرت بتاريخ ٥ كانون اول عام ١٩٢٩ .

«**الرفيق بريجنيف** : الخطة التى رسمت عندنا لاجراء حملة البذار الربيعى تواجه اعظم الصعوبات . فلا نملك الادوات الزراعية اللازمة لنا وبالتالى تبرز مشكلة نقل الماكنات الزراعية حادة جدا . وبحكم انتقال بعض السوفييتات الريفية الى الدورة الزراعية المتعددة تنكمش لدينا مساحة بذار المزروعات الخريفية والربيعية ، وتنظيم استثمار الاراضى الاخير احال خيرة الاراضى الى القسم الفقير والمتوسط من السكان فعلينا بحكم ذلك بذل قصارى الجهد لكى تكون هذه الاراضى مبذورة . لا شك فى ان الكولاك سيمارسون التخريب هنا . اذن يجب ان تستخدم كل الامكانات التى تقدم للقسم الفقير والمتوسط من الفلاحين استخداما تاما . ويجب ان يعار اهتمام خاص بتوزيع القروض على جماعات الفقراء التى نظمت . وارى ان نقصا كبيرا فى العمل على اشاعة التعاونيات يتجلى فى انعدام الخطط لهذا العمل . ولم تجره السوفييتات الريفية اجراءا منهاجيا ، ولم يثر

المشرفون القادمـــون الى القرى مسائـل اشاعـــة التعاونيات فى هذه القرى اثارة حادة . . .»

فى هذه الوثيقـــة صورة حقيقية لذلك الزمن ، للزمن المضطرب الصعب . كانت الشؤون فى القرية تتطلب بذل كل الطاقات . ولم ادخر جهدا ، وتقبلت انتخابى نائبـــا فى سوفييت نواب الشغيلة لناحية بيسيرت بوصفه ثقة يمنحهـا المواطنون لى . وعلى اثر ذلك عينت مديرا للقسم الزراعى فى الناحية ثم انتخبت نائبا لرئيس اللجنة التنفيذية فى الناحية . وفى اوائــل عام ١٩٣١ جـــاء تعيين جديد الى سفردلوفسك ، حيث عينت نائبـا لرئيس الادارة الزراعية فى منطقة الاورال ، وانتقلنا انا وزوجتى الى سفردلوفسك . ولكنى اعتزمت بعد فترة من الوقت العودة الى مصنعى الحبيب للعمل برادا والدراسة فى المعهد فى آن معا .

— ٣ —

واليكـــم كيف حدث ذلك . كنت طوال سنوات اتتبع ، برسائل الاهل وبما ينشر فى الجرائد ، ما يجرى فى مصنعنا . وقد طالب عمال المصنع انفسهم بترميمه . وقصد وفدهم موسكو وتوصل الى الاجتماع بدزرجينسكى ، وهـو آنذاك رئيس المجلس الاعلى للاقتصاد الوطنى ، والحصول على مساعدته . وظهرت

فى الصحف عام ١٩٢٥ خطبته امام الكونفرانس الرابع عشر للحزب الشيوعى (البلشفى) لعموم روسيا : «عليّ ان اقول ان عملاقا واحدا من تلك العمالقة التى كانت تعمل فى الجنوب فى حينها ، كان يدر كل سنة منتجـات باكثر من عشرين مليون بود مـن المصنوعات (البود يساوى ١٦,٣٨ كغ . — **المترجم**). وهذا العملاق ، وهـو مصنع دنيبروفسكى ، مفتوح اعتبارا من يوم امس ٢٨ نيسان فى الساعة الثانية ، وتم تشغيل اول فرن عال فيه» .

وطبيعى ان هذه الانباء اثارتنى ونكأت الذكريات فى نفسى . فما كان بامكانى نسيان ان مصنعنـا يستجمـع قواه وينمو لاسيما وان رائحة الحقول والمروج فى الاورال ايضا اختلطت فى كل مكـان برائحة الصناعة المألوفة . فاينما ذهبت تبرز امام عينيك مداخن المعامل يعلوها الدخان . وفى بيسيرت نفسها وفى مكان قريب منها كانت مصانع ديميدوف القديمـة — نيجنيسيرغييفسكى وميخائيلوفسكى وريفدينسكى . امـا عن سفردلوفسك فحدث ولا حرج : فى ذلك الوقت تحديـدا ، بدأ هنا بنـاء اورالماش — «مصنع المصانع» على نطاق لا سابق له .

وفكرت بهذه الصورة : لقد تـم فى اشاعـة التعاونيات تقدم لا رجعة فيه (عند اواسط عام ١٩٣١ اتحد فى المزارع التعاونيـة اكثر من نصف المزارع الفردية فى البلاد) . اما الصناعة فقد اخذت تستجمع

قوتها توا . فهناك ، على الجبهة الصناعية ، يقع اليوم الخط الامامى للنضال فى سبيل الاشتراكية . فبدون الصناعة وبدون الكهرباء وبدون شبكة واسعة من محطات الماكنات والجرارات لن تنهض الزراعة ايضا . كانت البلاد بحاجة الى المعادن . وكانت مصانع الجنوب تعطى ثلثى الحديد الزهر وكان مصنع دنيبروفسكى يعد اكبرها واطلق عليه اسم دزرجينسكى . مكانى اذن هناك .

وهكذا رجعت الى الديار . كان من الصعب ، طبعا ، الخروج من جديد ببزة العمال الى النوبة ثم الدراسة مساء فى المعهد ، لكن هناك الهمة والكافى من التصميم .

وفى عام ١٩٣١ قبلونى فى مصنعى الحبيب عضوا فى الحزب . واتذكر ذلك وكأنه حدث اليوم . كان ذلك فى ٢٤ تشرين اول . وحلت محل بطاقة المرشح فى جيبى الهوية الحزبية رقم ١٧١٣١٨٧ . وكنت ادرى انها لا تمنحنى امتيازات وانما تلقى عليّ واجبات جديدة غير سهلة . الا انى اعتقد بان كل واحد منا نحن الشيوعيين لو سألوه هل بوده اختيار طريق آخر لاجاب جازما : كلا . ذلك لان طريقنا هو طريق خدمة الشعب والحزب المتفانية .

صار وقتى اكثر كثافة . كان التعمير يجرى فى الورش ويشرف عليه كبير مهندسى مصنعنا باردين ، الاكاديمى فيما بعد . وكانت تركب وحدات جديدة من

الماكنات وتطبق المكننة ، وباختصار لم يكن هناك عوز فى الاعمال . وكان المعهد ايضا تفور فيه حياة ممتعة . كنا جميعا تواقين الى المعارف آنذاك بنهم . اما انا فعلاوة على ذلك انتخبت منظما للجماعة الحزبية فى الكلية ، ثم رئيسا للجنة النقابية ، واخيرا سكرتيرا للجنة الحزبية للمعهد كله . كانت تلك هى ثقة الرفاق الكبيرة . وقد سرتنى الثقة طبعا ، بل انى كنت بطبيعتى من اولئك الذين يحبون ان يكونوا فى لجة الناس وان يهبوا انفسهم كلية للقضية .

وبرزت بروزا حادا بوجه خاص فى الثلاثينات مهمة تعليم الكوادر ولاسيما المثقفين العلميين التكنيكيين وتربيتهم وصقلهم الفكرى . ولهذا فقد اعتبرت العمل الذى عرض عليّ عام ١٩٣٣ ذا مسؤولية كبيرة اذ عينت وانا طالب فى السنة الثالثة رئيسا للكلية العمالية ، ثم مديرا لمعهد التعدين المتوسط فى دنيبرودزرجينسك . وعكفت على العمل . كان بودى فعل الاكثر للرفاق . وبقى سجل اوامر تلك السنوات . وتصفحت مبتسما الاوامر القديمة التى تبدو ساذجة اليوم من بعض الوجوه . ولكنها كانت آنذاك تعكس سياسة . كنا نعد واجبنا الكفاح لكسب كل طالب من طلابنا ونقنع شبان المصنع بالدراسة وسعينا الى مساعدتهم بالسلف النقابية او بمجرد تقديم الطعام لهم فى مطعمنا . وذات مرة قدم الى المدينة الاكاديمى بافلوف عالم التعدين المعروف

واضع نظرية عمليـــة الصهر فى الافران العالية ، واستدرجته الى التحدث امام طلاب الكلية العمالية . وفرحت حين شاهدت كيف اصغى اترابى للاكاديمى . وقد خرج من صفوف هـؤلاء الشبان فيما بعد قادة ممتازون للانتاج – لا «متخصصون» من طراز قديم وانما متحمسون ومجددون واناس مخلصون لمثل الشيوعية .

الا ان العمـــل فى المعهد المتوسط والمهمات الحزبية والشؤون الاجتماعية لم تعفنى انا نفسى من الدراسة . كنت اخطط التصاميم المطلوبة واؤدى الاختبارات بدون انتظار تساهل معى ، بل العكس هو الصحيح كان موقعى ملزما بان اكون قدوة للآخرين . فهل كان بامكانى ان اطالب الآخرين بالنجاح والاجتهاد لو كنت انا نفسى مهملا فى الدراسة ؟ واورد وثيقة اخرى هى مقتطف من محضر اجتمـاع لجنة المؤهلات الرسمية بتاريخ ٢٨ كانون ثانى عام ١٩٣٥ :

«**استمعنا** الى : مناقشـــة مشروع نيل الشهادة لطالب السنـــة الخامسة فى قسم القوة الحراريـــة ل . ا . بريجنيف فى موضوع : «مشروع تنقية غاز الفرن العـالى الالكتروستاتيكية فى ظروف مصنـع دزرجينسكى» . تقدير العمل من قبل القسم : الجزء النظرى – بامتياز ، المشروع – بامتياز .

تناول الطالب مهمـة تنقية الغاز تناولا متبصرا والحسابـات فى الملحق تفصح عن مؤهلات صاحب المشروع الهندسية الرائعة .

اعطى الرفيق بريجنيف عن كل الاسئلة اجابات ضافية .

قررنا : ان العمل للشهادة مؤدى اداءا ممتازا . يمنح الرفيق ل . ا . بريجنيف درجة مهندس القوة الحرارية» .

اما عن عملى الجديد رئيســا لنوبة فى ورشة القوة الحراريـــة فاقول باختصار : كانت تلك سنة ملأى بالجهد الشاق والبحث عن طرائق انتاجية امثل ومجادلات ونوبات طليعية وخطط اضافية واستدعاءات ليلية واحيانا حالات استنفار .

وفى تلك السنة نفسها تمت انعطافة جادة جديدة ايضا : استدعيت الى الجيش الاحمر .

قدمت صباحا الى اللجنة العسكرية ومعى ورقة الاخطار فالتقيت هناك اركادى كوتسينكو طالبنـــا المتخرج قريبا . واتضح اننا كلينـــا ، نظرا الى تعليمنا يرسلوننا الى تشيتا ، الى مدرسة الدبابات التى كانت تسمى حينئذ **باكاديمية** الدبابات فى ما وراء بايكال . وكان لا بد مجددا من توديع المصنع والاصدقاء والاهل والرحيل الى اطراف بعيدة .

سألنى كوتسينكو :

– أتريد ان تصير عسكريا ؟

قلت :

– من يدرى ؟ ربما هذا ايضا سيكون نافعا جدا فى حياتنا . . .

ظل قطارنا العسكرى يسير نحو الشرق اربعين يوما بلياليها ، وسرنا عبر موسكو ، وكنت آمل بأن اشاهد الساحة الحمراء والكرملين وان اقف عند ضريح لينين . لكن هذا لم يتسن لى الا فى طريق العودة .

كنت اشعر بحزن مثلما يحدث دائما حين يظل وراءك شوط من الحياة ، وبفرح فى الوقت نفسه لان حياة اخرى غير معروفة بعد تنتظرنا ويتفتح مرة بعد مرة افق جديد وراء الافق ، على حد قول الشاعر . . .

ربما هذه سمة من سمات الطبع : كل الاماكن التى تأتى لى العمل فيها احبها حتى الآن واعدها قطعة من نفسى . تعجبنى القرى الاوكرانية كالجزائر البيضاء-الخضراء وسط حقول القمح ، وجمال مناظر بيلوروسيا غير المبهرج والذى يأخذ مع ذلك بمجامع القلب ، وازدهار بساتين مولدافيا السخية وسهوب كازاخستان التى لا حد لها ، لاسيما فى الربيع حين تتدثر ببساط محبوك من زهور الخزامى والخشخاش . . . وخلال تلك الايام الاربعين مرت البلاد كلها امام عينىّ ، فلم افتأ ادهش لترامى اطرافها .

كان المعسكر الذى وصلنا اليه يقع ازاء محطة بيستشانكا بالقرب من تشيتا . كانت بيوت خشبية مستطيلة واطئة رمادية اللون تقوم فى بقعة صفراء ،

وهى بيوت سبق ان بناها اليابانيون . وكانت فى الوسط ساحة تتراكم حولها الصخور الموحشة . واتذكر بعيرا مهوما يجر براميل الماء . كان الماء هناك مجلوبا من بعيد وكانوا يقدمونه للاستحمام (وهو قبل كل شىء بالنسبة الجندى) بمعدل سطلين للفرد .

واعطونا اللباس وقسمونا الى سرايا ، فكنت فى السرية الاولى من كتيبة الدبابات ، وبدأت الخدمة .

— انهض ! انطلق !

كنا ننطلق عراة حتى المحرم خارجين الى تمارين الصباح سواء كان الجو قيظا او زمهريرا ، مطرا او رياحا . ثم نصطف لنذهب الى الفطور ثم دروس الانظمة العسكرية ، وساعات طويلة من المسيرات وتوجيهات العريف فاليلييف الذى كان معنا صارما خصوصا .

— هنا ليس معهد . هنا يجب ان تفكر برأسك . اســ . . . ـتــ . . . ـعد !

كنا نسير منشدين الاغانى — وكانت المفضلة آنذاك «ارادوا ضربنا ضربا» — ونغنى متآلفين مع الصفير والخطوات الايقاعية . وسرعان ما انخرطت فى هذه المعيشة .

تأتى لى فى وقت قريب خلال رحلتى الى سيبيريا والشرق الاقصى ان ازور بيستشانكا . لم تعد هذه بتاتا ذاك النجع . وان فيه اليوم ايضا وحدة تدريب

عسكرية ، ويوجد متحف الامجاد العسكرية حيث شاهدت صورتى ايضا وانا ارتدى خوذة رجال الدبابات فى تلك السنوات . لقد جمع الجنود بحنان صور ومواد الحرب الوطنية العظمى ووثائق محاربى الارض الصغرى . ثم دعانى الجنود الفتيان الى مشاهدة البيوت التى ينزلون فيها . ومرة اخرى لم تكن هذه بتاتا تلك البيوت الخشبية ، حيث اجتزنا الخدمة . انها الآن بيوت حديثة ونوافذ عريضة واسرة مرتبة وارضية مغسولة نظيفة . اما فى ذلك الوقت فان المساكن كانت معدومة فى واقع الامر والدبابات واقفة فى الخنادق ولا يغطيها غير المشمع .

كانت الخدمة العسكرية هى اول الامور عندنا . وكان يعار اهتمام كبير فى الجيش ، كما هى الحال دائما ، للرياضة — التمارين على العارضة واللعب بالكرة الطائرة ، وفى الشتاء مسيرات التزلج . اتذكر انه قدر علىّ ان اقطع وحدى طريقا طويلا بالزلاجات ما بين ثلاثين واربعين كيلومترا . كنت احمل البلاغات الى القيادة عند محطة السكك .

كانوا يقولون لنا غالبا ان على رجال الدبابات ان يجيدوا وان ينجزوا مسيرات المشاة السريعة ايضا . صرة المعطف ترمى على المنكبين والحذاء يربط ويجىء الامر : «الى الامام سر !» كانت المسيرات بعيدة . فى البدء ، كنا نبرى الاقدام حتى التقيح لاننا لم نكن نحسن لفها باللفافات . حدث

هذا كله . وذات مرة ربيعا طفح نهير محلى بين تلين خلال مسيرتنا . كنا عائدين ، نخطو مغنين وكان كل شىء يبدو على ما يرام . وفجأة واجهنا مانعا مائيا . وسمعنا صوت الآمر : «لماذا توقفتم ؟» . اننا صامتون ، ولسان حالنا يقول : الا ترى ؟ لا يمكن اجتياز الماء . زد على ذلك ان الريح عاتية باردة . كان الربيع الباكر فى هذه الاماكن لا يسخو بالدفء . فرأينا كيف خلع الآمر قميصه ولف به سلاحه ، ثم رفع الصرة فوق رأسه وامر : «اتبعونى !» . الماء ثلجى وحين اجتزنا النهير اصطكت اسناننا . واذا بأمر جديد : «الى الامام عدواً !» . لا ضير ، تحملنا .

هكذا صقلت الارادة . وهكذا شذبت الطباع ، طباع الجندى السوفييتى . ثم جاءت امتع الامور فى الخدمة : دروس التكتيك ودراسة تركيب الدبابات وسياقتها . درسنا حينئذ الدبابات المتوسطة «ت — ٢٦» و«ب ت — ٥» ، وهى حسب الوقت الحاضر ضعيفة طبعا . ولكنها كانت فى وقتها تبدو لنا سلاحا رهيبا . كنا نطلق من المكان وبالمسيرة على اهداف متحركة وكنا فخورين جدا عندما كان كوبتسوف آمر الكتيبة نفسه يقيم اطلاقنا بامتياز .

وانى اتذكر بسرور كبير حتى الآن هذا الآمر الصارم والانسان الرقيق . ليس بوسعى القول اننا صرنا صديقين (كان هو آمرا وانا طالبا) . ولكن آمر

الكتيبة كان يعاملنى جيدا . وكنت انا ايضا اكن الاحترام له . ولم يكن نادرا ان نتكلم فى الاماسى عن الخدمة فى الجيش وعن الحرب المحتملة . وفيما بعد شارك فاسيلى اليكسييفيتش كوبتسوف فى المعارك عند خالخين-غول . ونال لقب بطل الاتحاد السوفييتى ، جاء الى الحرب الوطنية جنرالا واستشهد فى الجبهة استشهاد الابطال . كان ذلك اول ضابط مسلكى اعرفه : ويقال عادة عن امثاله : «عسكرى بالفطرة» . كان بطباعه رجلا قليل الكلام ، شديد الشكيمة ، دائم الاناقة والهمة . كان عندى مرشدا ومثال القائد الحقيقى الذى وهب حياته لتربية الجنود السوفييت الذين يمكن ان يهبوا فى اية لحظة للدفاع عن وطننا العظيم .

واتذكر الحادثة التالية . كان يجرى نهر تشيتينكا غير بعيد عن مكان وحدتنا . وكنا نهوى الذهاب الى الشاطئ : ماء نقى رقراق ويلوح القاع فى اماكن كثيرة . وقال كوبتسوف ذات مرة :

— اجتمعتم هنا ، وكلكم مهندسون . فهيا حاولوا معالجة المهمة التالية . انتم تقطعون بدباباتكم سهلا تجتازون الموانع وتضعون الدبابة على التلال بزاوية ولكن ، ألم يدر فى بال احد منكم كيف يمكن بالدبابة اجتياز قاع النهر ؟

وماذا ؟ شرعنا بحل هذه المهمة ، بدأنا نفكر

ونحسب ما يمكن فعله . وفى نهاية الامر انجزنا هذه المهمة .

فما هذا ؟ هل هو تربية نوع من الاقدام ؟ كلا . لقد فهمنا ايعاز آمر الكتيبة على انه يعدنا لاية صعوبات يمكن ان يواجهها طاقم الدبابة لا خلال التدريب وانما فى سورة العمليات الحربية . وهناك تنبغى معالجة مهمات اصعب مما فى ساحة او مرمى التدريب . هذا ما كان كوبتسوف يعدنا له . وكان الكثيرون ممتنين له على ذلك . ولقد غدا رجال الدبابات الذين اجتازوا التدريب فى كتيبتنا آمرين محنكين فى سنوات الحرب الوطنية . فكيف لا نتذكر هنا كلمات سوفوروف : «التدريب الصعب يسهل على المرء القتال» . حقا ان القتال ليس سهلا بتاتا .

كنت فى بيستشانكا من اوائل الذين عينوا امراء فصائل . وكان هذا التعيين مشرفا لى واعتبرته ثقة من القيادة .

ثم صرت موجها سياسيا لسرية الدبابات . كانت الايام مليئة حتى آخرها . فهناك الخدمة العسكرية واصدار النشرات العسكرية وساعة التثقيف السياسى والعمل التربوى ، ثم لا بد من المحادثة مع الجنود . والناس يظلون ناسا ولدى الكل همومهم واتراحهم وافراحهم . ولكنى مهما كنت مشغولا كنت اتصيد دوما لحظة لابعث بخبر الى اهلى ، حتى انى ارسلت

ذات مرة صورتى اليهم . كنت واقفا عند باب البيت واقبل عليّ كوبتسوف فنقر احدهم آلة التصوير فحصلت صورة . واعتزمت ارسالها الى الاهل وقد فكرت هكذا : مما يبعث سرور الوالد والوالدة دوما ان يتلقيا رسالة ، والاكثر من ذلك ان ينظرا الى ولدهما .

— ٥ —

ومرت السنون . وانى الآن ارى جيدا بوجه خاص كم كانت مفيدة لى كل هذه الرحلات والتعيينات ، واللقاءات الجديدة والاعمال الجديدة التى تأتى لى ان المّ بها .

حين ناقشت شهادة المهندس لم يخطر ببالى طبعا انه سينتظرنى مستقبلا تولى ترميم «زابوروجستال» وقيادة الصناعة الدفاعية فى مقاطعة بكاملها وحتى فى البلاد كلها . ولم احسب حين عملت خبيرا فى تنظيم الاراضى انه سينبغى لى مع الرفاق استصلاح الارض فى ملايين الهكتارات من الاراضى البكر ، وحين تلقيت المراس العسكرى لم اتصور بالقدر التام كيف سيكون ذلك نافعا فى حرب هى الاضرى بين الحروب . ولم ادر ايضا ان هذا كله مجتمعا سيتحول عند الاختلاط الدائم بجمهور الناس الى سبيكة من الخبرة والملكات والمعارف توصف

بكلمتين بسيطتين : العمل الحزبى . ومع مرور السنين فقط صرت افهم انهم كانوا يعدوننى فعلا مثل الوف من الاشخاص الآخرين ، اعدادا واعيا تماما للاعمال الجليلة المقبلة . وتولى الحزب الشيوعى هذا الاعداد .

سرعان ما انتخبت بعد العودة من الجيش نائبا لرئيس اللجنة التنفيذية لسوفييت مدينة دنيبرودزرجينسك . وكان رئيسها حينئذ افاناسى ايليتش تروفيموف : العضو القديم فى الحزب من بحارة البلطيق والمشارك فى ثورة اكتوبر والعامل فى مصنعنا . ولم يكن لديه من التعلم الا القليل . فسر جدا بمؤهلاتى الهندسية وعرض فورا ادارة مسائل البناء والمرافق البلدية فى اللجنة التنفيذية .

فكان لا بد من سبر غور عمل السوفييت . هذا العمل النشيط والمتعدد الجوانب والموجه كلية نحو حاجات الشعب . لم يكن العمل جديدا عليّ . فقد سبق ان مارسته فى ناحية بيسيرت . ومع ذلك كان لا بد من فهم امور كثيرة جديدة . وقد ساعدتنى هذه التجربة عام ١٩٦٠ حين انتخبت رئيسا لهيئة رئاسة السوفييت الاعلى للاتحاد السوفييتى ، وتساعدنى اليوم ايضا حين ائتمننى الحزب والشعب من جديد على هذا المنصب الرفيع المشرف والفائق المسؤولية معا والذى يتطلب جهدا لا يكل وذلك الى

جانب مهمات الامين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى .

وانا اذ اتذكر ممارستى الشخصية كنت اسعى منذ البداية الى اعداد واقرار قوانين توسع حقوق النواب ، واثير مسألة تقوية دور السوفييتات المحلية واعلاء شأنها وتحسين عمل مجمل جهاز الدولة .

وانى اتذكر بالامتنان دوما عملى فى كامينسكويه الذى تحول امام عينىّ الى مدينة دنيبرودزرجينسك العصرية . كان ذاك وقتا ممتعا للغاية . فحينئذ بالذات صفقنا لرباعى بابانين الذى قهر القطب الشمالى وتتبعنا بقلوب واجفة تحليق تشكالوف . وفرحنا للانباء الواردة من ماغنيتكا ومجمع كوزنيتسك والمشاريع الاخرى . كان مصنع دنيبروفسكى فى تلك السنوات يواصل هو ايضا تطوره : فى عهدى شغلوا الفرن العالى الثامن ومعمل الاغلوميرات وورشة مارتان الثالثة . ودوى فى كل ارجاء الاتحاد السوفييتى الرقم الستاخانوفى القياسى لصاهر الفولاذ عندنا ياكوف تشايكوفسكى . ودعا سيرغو اوردجونيكيدزه مفوض الشعب للصناعة الثقيلة صاهرى الفولاذ فى البلاد الى اقتباس تجربته .

ونمت المدينة مع المصنع بل الادق مع المصانع التى ظهرت عندنا . دخلت فى حدودها قريتا تريتوزنويه وورومانكوفو . ونجمت المشاكل - عوز

فى المدارس والمستشفيات ورياض الاطفال . وكانت حالة السكن صعبة . وكانت شبكة توزيع المياه والمجارى ووسائط النقل بحاجة الى اصلاح . وهذا هو ما كنت اتولاه فى اللجنة التنفيذية . كان لا بد من تعلم خوض الجدال مع المدراء الذين كانوا يسعون الى بناء مرافق خاصة بمؤسساتهم ، والتغلب على النزعة الدوائرية الضيقة وجمع الطاقات والاموال فى قبضة واحدة . وانى اتذكر جيدا نجاحاتنا الاولى هب انها متواضعة لكنها ضرورية للناس اشد الضرورة .

وتسنى لى فى مفوضية الشعب للصناعة الثقيلة الحصول على اعتمادات . فمددنا خط الترام من باغليه حتى ساحة لينين . وكانت نشوة حقيقية حين جرت العربات الحمراء عبر المدينة كلها . واتذكر كيف شيدنا (خلال اثنين وستين يوما) المبنى الجميل الذى هو اليوم ايضا قصر الطلائع وكيف بنى الكمسموليون الملعب ، وكيف ظهرت عندنا العمارات «العالية» ذات الاربعة طوابق والشرفات والنوافذ العريضة . ومع ان نطاق البناء كان بعيدا عن النطاق الحالى فان مئات الاسر احتفلت باستلام شقق جديدة . وتم تبليط الشوارع فى المدينة ونظمت الجنائن وازدادت البضائع فى المتاجر واكتفى الناس من الملابس وغدت الحياة افضل . بهذا اتذكر وقت عملى فى دنيبرودزرجينسك .

امضيت فى سوفييت مدينة دنيبرودزرجينسك عاما ويزيد ، ثم رشحونى الى العمل الحزبى . ففى البداية ادرت قسما ، وفى شباط عام ١٩٣٩ انتخبت سكرتيرا للدعاية فى لجنة مقاطعة دنيبروبتروفسك للحزب الشيوعى (البلشفى) فى اوكرانيـــا . وقد تحدثت فى كتابى «الانبعاث» تفصيلا عن العمل المعقد والمتنوع للجنة الحزب فى المقاطعة وهى هيئة اركان المنظمة الحزبية للمقاطعة بأسرهـا . كان سكرتيرا اولا عندنـــا آنـذاك سيميـــون بوريسوفيتش زاديونتشينكو وهـو رجل محنك ذكى وصلب وكان يمكن تعلم الكثير منه . ونشأت بيننا علاقات عملية رفاقية وكنت اتحمل المسؤولية عن العمل فى مجال الايديولوجيـا وهو واحد من اهـم قطاعات العمل الحزبى . فتوسعت دائـرة مهماتـى الى حـد بعيد وكثرت مقاديـر الاعمال ، وتأتى لى عندئـذ ان اتجول غالبـا بالمدن والقرى والتقى بمئـات الاشخاص .

واعد امرا هاما جدا انى اجتزت هذه المدرسة . ومعروف انه توجد ثلاثة اتجاهـات اساسية للقيادة الحزبية ، هى : السياسى والايديولوجى والتنظيمى . ولا يجوز التساؤل عن الاهم بينها . فكلها ضرورية للحزب ، وكلها هامة بدرجة واحدة . وان اجـادة التوفيق بين كل جوانب النشاط الحزبى فن . وينبغى تعلم هذا الفن طوال الحياة .

وكان العمل الايديولوجى دوما ويظل واحدة من مهمات الحزب الشيوعى الاولية . وهذا عمل متنوع ، وهو يتطلب تحليلا علميـا للعمليات الجارية فـى المجتمع ومعالجة المشاكل الناجمة بحكم ذلك معالجة دائمة .

وانه لخطر نسيان الاساس الفكرى فى حيـاة الدولة والمجتمع حتى لبرهة وجيزة وحتى فى قطاعات منفردة والتسامح حيال الاخطاء الفكرية . وهى قد لا تكون للوهلة الاولى ملحوظة كالاخطاء التكنيكية مثلا . فان ماكنة ما صممت تصميما مغلوطا لن تعود بالقدرة المتوقعة او انها لن تعمل اطلاقا . وهذا يرى فورا والخسارة التى تسببها لا يصعب حسابها . اما الخطأ فى الايديولوجيا فخفى عادة ومموه بستار من الالفاظ الخلابـة . ولكنه مـع ذلك ينطوى على عواقب اوخم لانه سينعكس حتما وسيجلب ضررا فادحـا ما لم يتم تصحيحه فى وقته . لا فراغ فى عالمنـا الراهن : فحيث نسلو ونستنيـم هناك لا يتكاسل خصومنا الايديولوجيون . ولهذا ، كمـا علمنـا لينين ، «فان **كل** استخفاف بالايديولوجيا الاشتراكية **وكل انحراف** عنهـا يعنى تقوية الايديويوجيـا البرجوازية» .

ولقد شعرت بهذا شعورا حادا بوجه خاص فى تلك السنوات التى اتحدث عنهـا : كانت الحرب العالمية الثانية قد نشبت فى الغرب وصارت تقترب

من حدودنا ، واوشك الصراع الفكرى السياسى بين النظامين يكتسب شكلـــه الحدى ، اى الاصطدام الحربى المكشوف . فاشتدت والحالة هذه المتطلبات ازاء تربية الكوادر الفكرية السياسية وتوثيق صلة الحزب بالجماهير . وكان لا بد من القيام بعمل دعائى هجومـــى نشيط والتصدى فـــى الوقت المناسب للايديولوجيا المعادية وترسيخ الوعى السياسى الرفيع فـى نفوس المواطنين السوفييت وتربيتهـم بروح الوطنية الاشتراكيـة والاممية البروليتارية ، بروح الاخلاص لمثل الشيوعية .

ويجب ان يكون كل قائد وكل شيوعى تواقا الى ذلك ، ناهيك عن مهمة يخيل انه لا اسهل منها ولكنها تتطلب جهودا متواصلة واعنى ايصال الاهداف التى نتوخاها الى ادراك الشعب وتوضيح ما تبتغيه لجنة حزبنا المركزيـة على وجه التحديد فى المرحلـة الراهنة . وبعبارة اخرى ينبغى التحدث امام مستمعين مختلفين والاجتماع بالناس . وقد واجهت آنذاك فى مقاطعة دنيبروبتروفسك هذه الضرورة لاول مـرة واريد ان ادلى بهذا الخصوص ببعض التصورات التى اخذت تتكون لديّ منذ تلك السنوات .

ان الكلمة الحزبية المتأججة كانت وتظل سلاحا ماضيـا بيد الحزب ويجب استعمـال هذا السلاح بتدبر .

ان المواطنين السوفييت يباركون سياسة الحزب

ويؤيدونها ومع ذلك كنا دوما ولا نزال نولى العمل الايديولوجى اهتمامـا كبيرا . وان السلاح الرئيسى فى هذا العمل هو الحقيقة ونحن نرى ضروريا الكلام عن النجاحات وعن الهفوات بصدق والناس يفهمون الكلام الصريح دومـا . وقد اكد لينين ان قـوة الاشتراكية فى وعى الجماهير .

لا شىء اعقم من دعايـة بلا عنوان تتجه اليه ، دعاية مقطوعة عن اهتمامات المستمعين وعن متطلبات الساعة . واذا كان الخطيب يتملص من الاجابة عن الاسئلة الحادة فانه يوحى للناس عدم الثقة . واذا كان المحاضر يتمتم على المنبر ويكرر اشياء معروفة للجميع فلا نفع فى ذلك بقلامة ظفر ، بل قد يجعل خطيب كهذا الناس ينسون حسن الاستمـاع للمحاضرات اطلاقا . وان الشكلية فى هذه القضية ضارة ولا بد من تناول الامور تناولا مبدعا . واريد ان أؤكد ان سر النجاح ليس فى الاساليب الخطابية البارعة ، وهو ما يجيده الساسة البرجوازيون ، وليس فى البلاغة المحسوبة وليس فى قوة الاوتار الصوتية . ومعروف ان لينين لم يمتلك صوتـا جهيرا وهو الذى كان الجميع يسمعونه ، البلاد كلها والبشرية بأسرها . كانوا يسمعونه لانهم كانوا **يصغون** . وكانوا يصغون لان خطبه كانت فيهـا افكار وآراء قريبة الى نفس الجماهير ولانـه كان يجد للدفاع عن هذه الافكار حججا لا تدحض ولانه كان منطقيا ويخرج باستنتاجات

علمية عميقة وجريئة ويطرح مهمات محددة وجليلة دوما .

واتذكر ان السنوات السابقة للحرب كانت فى دنيبروبتروفسك وقت العمل الجهيد للغاية . كان كل شيء يبدو هادئا فى الظاهر : كانت تعرض فى السينما كوميديا «الفولغا – الفولغا» و«الطريق النير» . وكانت الحياة فى المدن والقرى تجرى مجراها العملى المعتاد ، وكانت الغلة تنضج فى الحقول ولكننا جميعا كنا نشعر بأن خطر الحرب يتعاظم . وتلقت لجنة مقاطعة دنيبروبتروفسك فى عام ١٩٤٠ مهمة ذات مسؤولية من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) لعموم الاتحاد السوفييتى ، وهى تحويل قسم من مؤسسات المقاطعة الى انتاج المعدات الحربية . ووردت من موسكو برقية سرية تعرض علينا استحداث منصب سكرتير لجنة المقاطعة للصناعة الدفاعية . وادار اجتماع المكتب زاديونتشينكو الذى قال انه باعتبار اهمية هذا العمل الخاصة والقيمة التى يضفيها عليه المكتب السياسى للجنة المركزية يجب ان يرشح الى هذا المنصب لا مجرد خبير ذى مؤهلات تكنيكية عارف بالتعدين وانما ايضا منظم ماهر يجيد التعامل مع الناس . قال شيئا من هذا القبيل واقترح ترشيحى . فصوتوا بالاجماع .

هل وضعنا فى حسابنا خطر الحرب الفعلى وهل

كنا نتأهب لذلك ؟ وضعنا فى الحساب وكنا نتأهب بلا شك . فلم يكن هناك ريب فى ان خطر الحرب يشتد وان الفاشية عدونا الرئيسى .

كانت البلاد فى حاجة ماسة الى المعادن . واصدر مجلس مفوضى الشعب للاتحاد السوفييتى واللجنة المركزية للحزب الشيوعى (البلشفى) لعموم الاتحاد السوفييتى قرارا فى حزيران عام ١٩٤٠ «بصدد التدابير التى تضمن تنفيذ الخطة المقررة لصهر الحديد الزهر والفولاذ وانتاج المدلفنات» . وانتشرت المباراة على نطاق الاتحاد السوفييتى بين عمال التعدين على الاستثمار الاحسن لقدرة الماكنات . وحقق ابناء مقاطعتى نجاحات ملحوظة فى هذه المباراة . صارت المؤسسات التى كانت تصنع منتجات سلمية صرف تعمل الآن لصالح الجيش : اخذ مصنع ارتيوم ينتج القطع للطائرات الحربية ومصنع الكومنترن الهاونات ومصنع دزرجينسكى للتعدين قذائف المدفعية ...

كانت ترد اليّ فى لجنة المقاطعة اخبار لا يمكن الا تبعث السرور . ومع انى كنت اتحمل المسؤولية منذ الآن عن مئات المؤسسات فانى كنت ، ولا اكتم ذلك ، اتسلم الاخبار من مصنعى الحبيب بلهفة خاصة . وفى عام ١٩٤١ اطلقت على مصنع دنيبروفسكى المسمى باسم دزرجينسكى صفة «احسن مصنع

تعدين فى الاتحاد السوفييتى» ونقلت اليه الرايـة الحمراء لمفوضيـة الشعب لتعدين الحديد واللجنة المركزية لنقابة عمال التعدين .

* * *

الحس الوطنى يبدأ عند كل واحد منا من ذكرى الطفولة ، من بيتـه ، من شارعه ، من مدينته او قريته . ومع ذلك ينبض فينـا الاحساس بالوطن الكبير العظيم الذى يغدو فجأة كله ، من طرف الى طرف ، فى ايام الاخطار والمحن الشديدة عزيزا على النفس وغاليا حتى الالم .

كنت محظوظا بان ارى عيانا رحاب الوطن وان اعرف عن كثب كثيرا من ابناء بلادى ، وكنت ادرى ان خطط الشعب وآمالـه ومقاصده جديرة بالارض التى اسعدنـا الحظ بـان نعيش عليهـا والتى تلقيناها من الاباء ويجب ان نتركها للابنـاء وهى اغنى وابهى .

ولقد اثبتنا هذا بالمنجزات العظيمة فى الخطط الخمسية الاولى .

وبعد ذلك حل فى حياة شعبنا زمان مبرح مرير وفى الوقت نفسه مفعـم بالايمان العظيم والبطولة الفذة . بدأت الحرب الوطنية العظمى . وحان وقت الذود عن المكاسب العظيمة للاشتراكية والدفاع عن

كل ما استطعنا فعله وبناءه والوقوف لحماية ارضنا الغالية بصدورنـا . فقطعت مع الملايين من الجنود والضباط السوفييت طريق الحرب الحافل بالصعاب من البداية حتى النهاية من يوم الحرب الاول حتى يوم النصر الاغر .

وهذه المرحلة لها حديث آخر .

محتويات

ИБ № 11923

Редактор русского текста *В. Е. Репин*
Контрольные редакторы *М. Н. Лоскутова*,
Т. А. Правдина
Художественный редактор *Г. Н. Губанов*
Технический редактор *Н. А. Кронова*

Сдано в набор 29.12.81.
Подписано в печать 29.01.82.
Формат 70Х90 1/32. Бумага литографская.
Гарнитура «каирская». Печать высокая.
Условн. печ. л. 2,92. Уч.-изд. л. 2,87.
Тираж 8850 экз. Заказ № 914. Цена 20 коп.
Изд. № 35974.

Ордена Трудового Красного Знамени
издательство «Прогресс»
Государственного Комитета
СССР по делам издательств,
полиграфии и книжной торговли.
Москва 119021, Зубовский бульвар, 17.

Ордена Трудового Красного Знамени
Московская типография № 7 «Искра революции»
«Союзполиграфпрома» Государственного
комитета СССР по делам издательств,
полиграфии и книжной торговли.
Москва 121019, пер. Аксакова, 13.